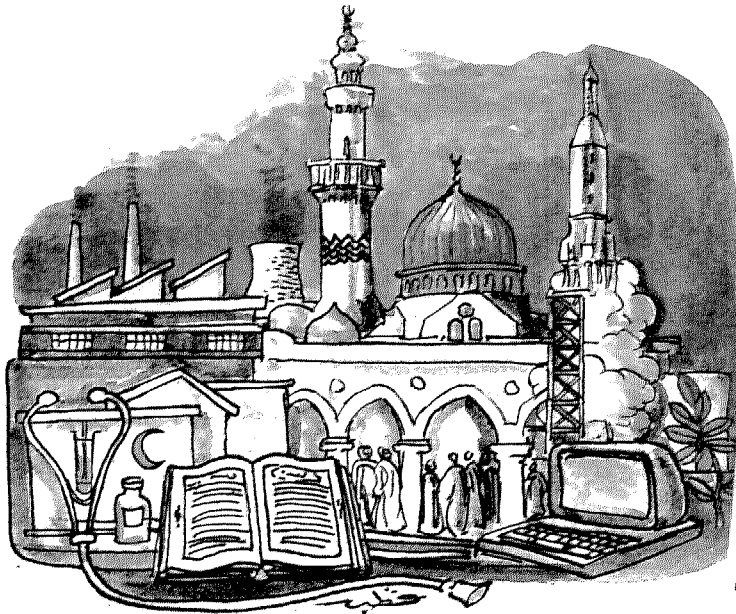
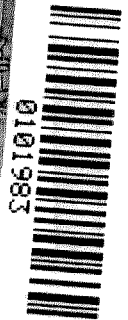


الإمام
محمد أبو زهرة

الدعوة إلى الإسلام

تاريخها في عهد النبي وصحابته والتابعين
والعهود المتلاحقة وما يجب الآن



Bibliotheca Alexandrina

دار الفكر العربي

الإمام محمد أبو زهرة

الدَّعْوَةُ إِلَى الْإِسْلَامِ

تاريخها في عهد النبي والصَّحَابَةِ والتَّابِعِينَ
والعهود المتلاحقة وما يَجِبُ الآنَ

طبعة جديدة

١٩٩٢

مليثم الطبع والنشر

كازا الفكر العربي

الإدارة: ١١ شارع جواد حسنى

ص. ب. ١٢٠ القاهرة - ت: ٣٩٢٥٥٢٣

٢١٣,٠٩ محمد بن أحمد أبو زهرة، ١٨٩٨ - ١٩٧٤ .
م ح د الدعوة إلى الإسلام : تاريخها في عهد النبي
والصحابه والتابعين والعهد المتلاحق وما يجب الآن /
محمد أبو زهرة - ط، جديدة. - القاهرة : دار الفكر
العربي، ١٩٩١ .
٩٦ ص : ٢٤ سم .
يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية.
١- الإسلام - دعوة - تاريخ. أ- العنوان

تعريفه بالشيخ الإمام

محمد أبو زهرة

الإمام محمد أبو زهرة غنى عن التعريف، إذ لا يختلف اثنان على أنه كان إمام عصره بلا منازع، ولكن من حقه علينا، ومن حق قارئه، أن نسطر عنه كلمات ولو فى أسطر قليلة تشير إلى نشأة ذلك الإمام، والجو الذى ولد وعاش فيه، والمواقف الشجاعة فى الإصلاح الاجتماعى والإسلامى، ولو أدى الأمر إلى الوقوف ضد اتجاهات السلطان.

هذا الإمام هو: محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد بن عبد الله، المولود فى عام ١٣١٦هـ، فى التاسع والعشرين من شهر مارس عام ١٨٩٨م. فى المحلة الكبرى إحدى مدن محافظة الغربية.

وأسرة أبو زهرة ينتهى نسبها إلى الأشراف، ولكنها لا تدعى ذلك كما يفعل الكثيرون، ممن يرفعون بذلك النسب خسيستهم، وإن كانوا فى واقع حالهم لا يستحقون الرفعة.

- بدأ الشيخ حياته التعليمية فى الكتاب. شأن كل أزهري فى ذلك الوقت، ثم المدرسة الأولية حيث تعلم مبادئ القراءة والكتابة، ثم انصرف إلى المدارس الراقية، وبها أتم حفظ القرآن الكريم، وتعلم مبادئ العلوم المدنية كالرياضة والجغرافيا، بالإضافة إلى العلوم العربية، وفى سنة ١٩١٣م التحق بالجامع الأحمدي بطنطا حيث ظهر نبوغه وتفوقه على أقرانه مما أثار إعجاب المحيطين به من زملاء ومربين. وفى عام ١٩١٦م دخل الإمام محمد أبو زهرة مدرسة القضاء الشرعى بعد أن اجتاز امتحان مسابقة كان أول المتقدمين فيه، رغم فارق السن، وعدد سنوات الدراسة بينه وبينهم.

- وقد تنقل رحمه الله فى عدة مناصب بين كلية أصول الدين، وكلية الحقوق، وتدرج فى مراتب التدريس، من مدرس إلى أستاذ مساعد، إلى أستاذ ذى كرسى، إلى رئيس قسم الشريعة، إلى أن أحيل إلى التقاعد عام ١٩٥٨م، واختير عضواً بمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر فى فبراير عام ١٩٦٢، وهو المجمع الذى يعتبر بديلاً لما كان يسمى فى الماضى هيئة كبار العلماء.

يتحدث عن نفسه، يقول:

- اختلطت حياتي بالحلو والمر، وابتدأت حياتي العلمية بدخول المكتب لحفظ القرآن الكريم، وإذا كان النبات قبل أن يستغلظ سوقه يعيش على الحب المتراكم، وقد يرى بالمجهر سورة النبات في ذلك الحب، فكذاك ينشأ الناشئ منا، وفي حبه الأولى في الصبا تكمن كل خصائصه في الكبر، وكنت أشعر وأنا في المكتب بأمرين ظهرا في حياتي فيما بعد.

الأمر الأول: اعتزالي بفكرى ونفسي، حتى كان يقال عني أنى طفل عنيد.

والأمر الثاني: أن نفسي كانت تضيق من السيطرة بغير حق.

وبسبب هذين الأمرين كانت حياة الشيخ أبو زهرة سلسلة من المواقف الشجاعة، يناضل في سبيل الحق ضد الباطل، ولم يرحل عن دنيانا إلا وقد ترك ثروة* من العلوم الشرعية الإسلامية التي تحيط بكثير من الموضوعات من كل جوانبها. فهو الكنز الذي لا ينقد، والنعيم الذي لا يزال ينهل منه الظامئون، ولا يضيق بكثرة الناهلين.

رحمه الله رحمة واسعة، وجزاه خير ما يجزى عالما عاملا لم يرد إلا العزة والرفعة للإسلام والمسلمين.

الناشر

محمد محمود الخضري

* المؤلفات الكاملة للإمام محمد أبو زهرة موضحة في آخر الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الدعوة إلى الإسلام

١- إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونتوب إليه، ونستغفره من تقصيرنا وسيئاتنا، ونرجو العون منه فيما أقدمنا عليه من قول، ونصلي ونسلم على محمد المبعوث للناس كافة بشيراً ونذيراً، وعلى آله وأصحابه الكرام الذين حملوا الراية من بعده، وقاموا بحق الرسالة، والإعلام بها، حتى عم العلم بها أكثر من يجاورونهم ممن اتصلوا به من الشعوب والأقاليم، رضى الله تعالى عنهم وأرضاهم، وأثابهم على ما قدموا من بيان للرسالة.

أما بعد، فقد رأى مجمع البحوث الإسلامية أن يكون من بين الموضوعات التي يتدارسها مؤتمره العام لسنة ١٩٧٢ مسألة الدعوة إلى الإسلام، فتكون مبحثاً من بحوثه، يتدارسه أعضاؤه، ويتواصلون على القيام بحق التبليغ الإسلامى امتداداً للتبليغ المحمدي الذي أمر به منزل الكتاب الكريم على نبيه ومن اتبعه إلى يوم الدين.

ولنا نقدم بعون الله العلي القدير هذا البحث، وقد قسمنا القول فيه إلى عناصر وتمهيد، فيشتمل البحث على :

(أ) تمهيد، نشير فيه إلى نشر الإسلام ابتداءً، وكيف كان بعد وفاة صاحب الرسالة.

(ب) وجوب الدعوة الإسلامية ومقامها من التكليفات الشرعية ومدى أمر الله تعالى للأجيال من بعد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في القيام بالدعوة إلى الإسلام، وليست إلا بيانه للكافة في الشرق والغرب.

(ج) المنهاج الذي سلكه الحواريون من أصحاب رسول الله ﷺ، وهم الذين عاينوا وشاهدوا، لأنهم اتبعوا سبيل النبي ﷺ، وهو سبيل المؤمنين.

(د) كيف انتشر الإسلام بعد الهداة الأولين، ومن الذين عملوا على نشره والدعوة إليه.

(هـ) الحال في هذا العصر والمنهج الذي يسلك في الدعوة إليه.

ولنا إذا أوفينا البحث في هذه الأمور على قدر طاقتنا نكون قد قمنا بتوفيق الله ببعض ما يجب علينا من العهد الذي أخذه الله تعالى علينا وأكده تعالى «لتبيننه للناس ولا تكتمونه»^(١).

(١) آل عمران: ١٨٧.

التمهيد

١- إن التبليغ الذي أمر به الله تعالى النبي ﷺ في قوله تعالى « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته^(١) » قد حملته أمته من بعده، ولها فيه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر.

وإنه إذا كانت الدعوة المحمدية عامة للناس كافة، وأنه لانبى بعده، فإن التبليغ لا ينتهي بوفاة صاحب الرسالة، بل إنه يستمر ما دامت السموات والأرض لتحقيقها، ولتعميم العلم بالإسلام، حتى يكون استحقاق الثواب لمن يؤمن، والعذاب على من يكفر، فإن الله تعالى يقول « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا^(٢) » وقد بعث الرسول الذي هو خاتم النبيين، وعلم أصحابه، وجعلهم رسلا من قبيله للناس كرسل الحواريين في عهد عيسى عليه السلام.

لقد ربي النبي ﷺ ذلك الجيل الذي عاصره من الصحابة، وعلم أصحابه من بعدهم التابعين، وتوارث الناس العلم بالرسالة المحمدية جيلا بعد جيل، وحمل العلماء أمانة التبليغ، كما حمل أنبياء بنى إسرائيل الذين جاءوا بعد الرسل أصحاب الشريعة أمانة تبليغ رسالاتهم، وبيان شرائعهم ونشروها بين الناس، ولذلك قال النبي ﷺ: « علماء أمتي كأنبياء بنى إسرائيل ». لقد كان الله تعالى يبعث نبيين مبينين لشريعة من سبقوهم من الرسل داعين، كالأنبياء الذين جاءوا من بعد موسى عليه الصلاة والسلام، مثل داود وسليمان وغيرهما من الذين لم يكونوا أصحاب شريعة، ولكن كانوا مطبقين للشريعة، حاكمين على مقتضاها.

فلما كان النبي ﷺ خاتم النبيين، ولا نبى بعده، ولا وحى ينزل على أحد من خلق الله بعده، كان لابد أن يكون من يقوم ببيان الشريعة، وتبليغها للناس، فكانوا هم العلماء، وكانوا كما قال الرسول ﷺ كأنبياء بنى إسرائيل الذين جاءوا بعد الرسل أصحاب الشرائع، فكانوا يحق عليهم بيانها وتطبيقها ونشرها بين الذين خطبوا بها.

٢- ولقد قام المسلمون الأولون من أصحاب رسول الله ﷺ بحق الدعوة، وخلفهم من بعد ذلك التابعون، وكان من الحكام بعد الراشدين من قام بحق الدعوة، كالحاكم العادل عمر ابن عبد العزيز رضى الله عنه، وكان من العلماء من اتخذ مبدأ الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه منهاجاً من منهاجهم، فالمعتزلة وغيرهم كانوا ممن حمل الدعوة إلى الإسلام والرد على الزنادقة، والمتهجمين على الحقائق الإسلامية.

(٢) الإسراء . ١٥٠

(١) المائدة : ٦٧

وكان المجاهدون الأولون لا يجاهدون للغلب وفرض السلطان، بل كان جهادهم ليشقوا الطريق للدعوة الإسلامية، حتى لا تقف محاذرات دونهما، كما سن النبي ﷺ، إذ أنه عندما خاطب برسله هرقل، والمقوقس وغيرهما من حكام الأقاليم، كان يريد أن يفتحوا باب الدعوة لتصل إلى شعوبهم، ولا يفعلوا فعلى هؤلاء الحكام الذين يحاجزون بين الدعوة والشعوب، إثم هذه الشعوب، كما قال النبي ﷺ في كتابه لهرقل أسلم تسلم، وإلا فعليك إثم الإرسين.

وما كانت الحرب لحمل الشعوب على الإسلام، بل كانت لفتح الطريق لإعلامهم بالإسلام ومبادئه « فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر^(١) » وأنه من بعد ذلك يتحمل وزر إنكاره بعد أن يعلم الإسلام من كل وجوهه، ويعرف ما فيه من خير وما في اتباعه من هداية وإصلاح فإن كفر بعد ذلك فعن بينة. وإذا آمن فقد سلك سواء السبيل ببرهان ربه، وأنقذه الله من الضلال عن بينة.

ولقد كان عمر بن الخطاب يفرض على الولاة الذين يرسلهم إلى الأقاليم أن يقوموا ببيان الإسلام، والتعريف بحقائقه لمن يحكمونهم مسلمين وذميين، فقد كان يقول لولاته « ما أرسلتكم لتضربوا أبشار الناس، ولكن لتعلموهم أمور دينهم »، وبذلك تتحقق الدعوة الإسلامية، ويقوم أمرها.

وكان من العمال الاتقياء، من يقوم بالدعوة، ويبينها تمكينا للإسلام، ثم كان أمر آخر، لا نذكره على أنه كان مقصوداً من الفتوح الإسلامية، بل نذكره على أنه جاء تابعا لها، ولغلب الحق على الباطل.

ذلك هو ما قرره علماء الاجتماع، وعلى رأسهم أول عالم اجتماعي «ابن خلدون» فلقد قرروا أن الضعيف مأخوذ دائما بتقليد القوى، واتباعه، ذلك أن القوة في ذاتها دعوة إلى اتباع فضائل من يتحلى بها، ولأن ضعف القلوب يجعله يقتبس من أسباب القوة عند الغالب. وإن الاحتكاك في الحروب، يجعل الأخلاق والآداب تسرى بين الشعوب وتعلو الأخلاق القوية على الأخلاق الضعيفة، ويفيض الأعلى على الأدنى كشأن طبائع الأشياء في الماديات والمعنويات على سواء.

فكانت الحروب معلّمة بالإسلام، ودعوة إليه من غير إكراه، لقد كان شأن المسلمين الأولين في غزواتهم أن يخبروا من يحاربونهم بين أمور ثلاثة : أن يسلموا ويبينوا لهم الإسلام، أو يعقدوا معهم العهد، ليأمن كل فريق صاحبه، أو الحرب.

(١) الكهف : ٢٩

وإن ذلك يقتضى حتما أن يتعرفوا الإسلام وما اشتمل عليه، ويقابلوا بينه وبين ما عندهم وإنهم بلا ريب سيجنون فيه علواً على ما عندهم، وفي وسط هذا تسرى المبادئ الإسلامية إلى الشعوب، كما يسرى النور في الظلام، ويزيل كثافة الظلمات.

٣- وإن الأخلاق الإسلامية بجوار قوة المسلمين الحربية والمعنوية، وعدالة الغالب مع المغلوب، كل هذا يكون من شأنه أن يؤثر في النفس، ويفيض منها ينبوع الخير، وتتفجر من القلوب التي كانت كالحجارة أو أشد قسوة، ينباع الإيمان القوى العامل.

إن معاملة المغلوبين الحسنة من شأنها أن تفتح قلوب المغلوبين إلى الهداية.

وقد كان الغزاة الأولون في قلوبهم رحمة ورأفة، وعدالة ووفاء وأخلاق العزة والكرامة التي لا تكذب ولا تناقض، ولا تهين ولا تذلل، وإن ذلك؛ بلا شك من شأنه أن يدنى القلوب، ويؤلفها، وإذا دنت القلوب من أهل الإيمان سرى إليها، ولاتقف محاجرات بينها وبينه.

إنه ثبت نفسياً أن التعصب لدين من الأديان ليس منشؤه قوة الإيمان به إنما منشؤه ضعف في النفوس، وانحياز فكري، وعدم النظر إلى الأمر من كل نواحيه، ولا شك أنه إذا دنت القلوب بعد اغترابها، ولانت بعد عصبيتها؛ تركت الانحياز إلى الائتلاف، والابتعاد إلى الاقتراب، وعندئذ يدخل نور الإيمان، وتتفتح أمامه المغاليق.

وإن الأخلاق الإسلامية تؤلف ولا تنفر، وتقرب ولا تبعد، فلقد أوصى النبي ﷺ بحسن المعاملة، وروى في بعض الآثار أن الدين المعاملة.

ولقد أوصى الله تعالى بحسن الجوار، وقال النبي ﷺ : « مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه ».

وحقوق الجار عظيمة من شأنها أن تربط بينهما بالمودة، والحسنى، وقد قال ﷺ : « والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قالها ثلاثاً، قالوا : من يارسول الله؟ قال : ذلك الذي لا يؤمن جاره بوائقه ».

ولقد كان لعبد الله بن عباس جار يهودي، فكان إذا أحضر لأولاده فاكهة، أعطى منها لأولاد جاره، وكان إذا ذبح شاة أهدى إلى الجار اليهودي منها.

ولقد نص النبي ﷺ على الإحسان إلى الجار المشرك، فروى عنه أنه ﷺ قسم الجيران إلى ثلاثة : جار مسلم نوره له حق الجوار وحق الرحم، وحق الإسلام، وجار مسلم، له حق الجوار وحق الإسلام، وجار مشرك له حق الجوار. ومن هذه الأخلاق التي أوصى بها النبي ﷺ فيها بحسن العشرة، وحسن المعاملة، دخل الإسلام إلى القلوب، وقرب النفوس.

٤- وإن العدالة الإسلامية في الشعوب التي حكمها كانت مرطبة لنفوس المغلوبين مدنية لقلوبهم، قاله تعالى يقول : «ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، أعدلوا هو أقرب للتقوى»^(١).

والنبي ﷺ أوصى بالذمين، وقال : « من آذى ذمياً فأنا خصمه يوم القيامة، ومن خاصمته خصمته ».

ولقد كان الخلفاء الراشدون حريصين على إكرام الذمين، والعدالة فيهم، وحققوا القاعدة الفقهية التي تقول «لهم مالنا، وعليهم ما علينا» من غير وكس ولا شطط.

وإن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وجزاه الله عن الإسلام خيراً، كان يعد المعاملة الطيبة من الولاة للذمين دليلاً على عدلهم، فكان إذا لقي الوفود من الأقاليم الإسلامية في موسم الحج كان أول أمر يسأل عنه، معاملتهم الذمين، فإذا تبين له أنهم يعدلون معهم عرف أنهم عدول في نوات أنفسهم ومع رعيته على اختلاف نحلها، فالعدل قرينة وتقوى.

وإن المعاملة العادلة تجذب القلوب، وتدنيها، فإذا علموا أنها من الدين الجديد فتحت قلوبهم له، وصغت إليه واستجايت له.

ولنقص عليك قصة وقعت لشاب قبضي، وتصور مدى أثرها الديني في نفوس شعب مصر.

تسابق شاب مصري مع ابن عمرو بن العاص، فسبقه المصري، فعلاه ابن عمرو بالسوط يضربه، ويقول له: أتسبق ابن الأكرمين، فنشط الشاب المصري إلى أمير المؤمنين، وشكا إليه الظلم الذي وقع به، فأبقاه عمر بالمدينة، وأرسل إلى عمرو يستدعيه هو وأبته، فقدموا إلى المدينة.

(١) المائدة : ٨

وأطمأن عمر العادل إلى صدق الدعوى، وأحضر الشاب المصرى، وأعطاه السوط، وقال : اضرب من ضربك، فأخذ يضربه، وكلما استأنى قال له : زد ابن الأكرمين. حتى اشتفى الشاب المصرى القبطى، ثم نحى أمير المؤمنين عمارة عمرو عن رأسه، وقال للشاب اضرب على صلعة عمرو، فباسمه ضربك، فقال الشاب : لقد ضربت من ضربنى يا أمير المؤمنين. فالتفت الفاروق إلى عمرو، وقال له تلك الكلمة النورانية الخالدة التى يترنم بها المسلمون وغير المسلمين إلى اليوم، قال : « منذ كم يا عمرو تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ».

لاشك أن هذه الحادثة سرت أخبارها بين المصريين، ووازنوا بهذا بين حكم الرومان الذى كان يجعلهم عبيداً؛ ولو كانوا نصارى مثلهم؛ وحكم الإسلام العادل الذى يجعلهم أحراراً، أو يحترم حريتهم الفطرية، ولو كان المعتدى أميراً أو ابن أمير، إن ذلك وحده دعوة عملية نافذة إلى الصدور، فلا غرابة أن تدخل مصر بعد ذلك فى الإسلام أفواجا، طوعاً لاكرهاً وبرغبة لابرهة.

ولعلمهم رأوا عمر بن الخطاب يعيد إقامة حد الشرب على ابنه خشية أن يكون عمرو بن العاص قد حابه فى إقامته بمصر، وقد رأوا ذلك رأى العيان وأى عدل أعلى من هذا، وهكذا نرى أن العدل فى ذاته دعاية قوية إلى الحق، لاتوجد دعاية أقوى منه بياناً، وأشد برهاناً.

هـ- وإن العدالة حتى فى الحرب، والسيوف مشتجرة كانت سائدة واضحة. يحكى تاريخ عمر بن عبد العزيز الحاكم العادل، أن أهل صفد من أعمال سمرقند شكوا إلى الحاكم العادل عمر هذا أن قتيبة بن مسلم دخل ديارهم فاتحاً، من غير أن يخبرهم بين الإسلام أو العهد أو القتال، كما هو الشأن فى الحروب الإسلامية.

شكوا ذلك إلى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فأرسل إلى القاضى يأمره بأن يجلس ويحقق الشكوى، ويجمع بين الشاكين والقائد العظيم قتيبة بن مسلم، فسمع القاضى إلى الشكاة، وإلى مقالة قتيبة، فتبين له صدق الشكوى، فأمر الجند الفاتح أن يخرج من ديار سمرقند، ويعود إلى ثكناته قبل الفتح، ثم يعود القائد إلى تخييرهم بين الإسلام والعهد والقتال.

لاشك أنهم يختارون العهد ولايختارون القتال، والكثيرون منهم يدخلون فى الإسلام، سواء أَرْضَى أولياء الأمر فيهم أم لم يرضوا.

إن الإسلام كان دين العدل في وسط عنجبية الحكم الطاغى، والظلم المبين، وكان فيه إنقاذ الرعية من الولاة الظالمين، والظلمة الأثمين.

ولاشك أنهم عرفوا أن الإسلام في عهوده التي يعقدها مع الحكام ملوكا كانوا أو غير ملوك، كان يشترط عليهم العدل في رعاياهم، فإن لم يعدلوا فقد نكثوا في أيمانهم ورد إليهم عهدهم، وقام المسلمون بقتالهم لإبعادهم عن ظلم الرعية، ذلك أن الظلم حرام في الإسلام، جاء بتحريمه القرآن ووصايا النبي ﷺ، وكل شرط يحل حراما أو يحرم حلالا فهو رد على من اشترطه كما قال ﷺ: «المسلمون عند شروطهم إلا شرطا أحل حراما أو حرم حلالا» وإن الظلم حرام بحكم الشرع، وبحكم العقل.

الجال الآء

٦- حالت الأحوال، وتغيرت الأمور، فصار ما يظهر من المؤمنين يخالف ما يدعو إليه دينهم، وصار بأسهم بينهم شديداً، والعدل الذي كان داعيتهم اختفى فيما بينهم، فلم يعدلوا في أنفسهم، ولم يكن العدل أساس علاقتهم بغيرهم، إذ فسد حكامهم، وصار الطغيان هو الذي يسيطر عليهم، ويزعمون أن ذلك حكم الإسلام، واضطربت الأمور، وشغرت الأمة من أن ترى حاكما يحق الحق، ويزهق الباطل، ويعلى معالى الأمور، وحكم الهوى والشهوة واستمر الظلم فيما بينهم، حتى خضعوا وهانوا، وبعد أن كانوا الأقوياء الذين يطلب منهم العدل في أنفسهم وغيرهم صاروا الضعفاء المستجدين الذين يستجنون العدل من غيرهم لأن العدل فضيلة القوى، لم يعوبوا أقوياء، بل صاروا المستضعفين الذين استخنوا وذلوا، وصار غيرهم يتصرف في أمورهم، ولا رأى لهم، وإن استشاروهم ظاهراً، فالأمور بيت فيها من ورائهم باطناً، ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى، وهو مصرف الأمور ومقلب القلوب.

ولقد كان التجار المؤمنون يحسبون أن عليهم واجب التبليغ فبلغوا مع فساد الحكام، وإن شرق أفريقيا كان تجار الحضارمة في وسط ظلم الحكام وفساد بيوت المال، يقومون بالدعوة فيه حتى فشا الإسلام في الصومال وزيلع ويرر وصومع وإيرتريا والحبشة، وكانوا الغالبية الساحقة فيها، وإن لم يكن لهم بطش أمام حكامها غير المسلمين المؤيدين من المسيحية العالية التي لا تتمثل فيها روح السيد المسيح عليه السلام.

وأخلاق المسلمين الظاهرة تغيرت، فلم يكونوا في هذا الزمان صورة للاستقامة وقوة الإيمان، واستشعار العزة، بل خنعوا وهانوا في أنفسهم، فهانوا في نظر غيرهم، ورضوا بالأمور القائمة، وإن كانت تفرض الذل عليهم، وإذا دعاهم داع إلى العزة استهانوا بدعوته، أو وضعوا أصابعهم في أذانهم، واستغفشوا ثيابهم، وقاوموا وعاندوه، ورضوا أن يكونوا قوماً بوراً، وأن يكونوا أذلة للكافرين المتحكمين، والمتغطرسين على المؤمنين، وغيروا وبدلوا في معاني كتاب الله تعالى الخالد الذي وصف الأولين من المؤمنين بأنهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، فبدلوها بأن صاروا أعزة على ضعفائهم أذلة لغيرهم، ويعد أن قال الله في وصف المؤمنين الصادقين أنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم، صاروا خائعين للكفار أشداء على أنفسهم، يسومون إخوانهم العسف والهوان، ويطأطئون الروس هلعاً وخوفاً أمام غيرهم.

ولقد حكمت الأهواء والشهوات الملوك وسرت إلى الرعية، وهذا ومن من الأمم، ولقد قال ﷺ فيما روته الصحاح:

«تداعى عليكم الأمم تداعى الأكلة على قصعتها، قالوا: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكن غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله تعالى من قلوب عديكم المهابة منكم، وليرزقنكم الوهن، قالوا: وما الوهن يارسول الله، قال: حب الدنيا وكراهية الموت».

وهانحن أولاء الآن كذلك في هذا الزمان، غلبت على حكامنا الأهواء والشهوات، وسرت إلى من حولهم الذين يلقون لفهم، ويدورون حولهم، ويلقون من مائدتهم ما يبقى منهم، غير ملاحظين ديناً ولا خلقاً، ولا مروءة ولا كرامة.

وقد يقول قائل: هل صارت الأمة كلها كذلك، وقد قال النبي ﷺ: «الخير في وفي أمتي إلى يوم القيامة» ونقول في الإجابة عن ذلك، إنا نرجو أن نكون من أمة واحدة التي قال فيها عليه الصلاة والسلام ذلك.

ولكن نقول إن هذا الأمر البارز الظاهر، وهو تحكم الأهواء والشهوات، والدعوة إلى اللهو والعبث، وسيطرة الترف، والله تعالى يقول: «وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها، ففسقوا فيها فحق عليها القول، فدمرناها تدميراً»^(١).

(١) الإسراء: ١٦.

إن في المسلمين بحمد الله صالحين مؤمنين، ولكن غمرهم الذين أقسوا المجتمع الإسلامي، وجعلوه مجتمعاً لاهياً لاعباً، فإن لم يكن كذلك كان خانعاً مستسلماً، لا يغير ولا يبدل، وهو يرى التغيير في أحكام الله تعالى والتبديل فيها، ولا يعلن استنكاره، وإن استنكر فيقلبه، وهو أضعف الإيمان. وبذلك صار المسلمون قوماً بوراً، إذ رأوا الباطل، ولم يعلنوا استنكاره، والظلم ولم يقاوموه، والنبي ﷺ يقول: «لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، وتأخذن على يدى الظالم، وتأطرنه على الحق أطراً، أو ليضربن الله تعالى قلوب بعضكم ببعض، ثم تدعون فلا يستجاب لكم» ولقد قال ﷺ «لا يسأل العامة ظلم الخاصة حتى يروا الظلم فلا يغيروه».

نحن نسلم أن المفسدين ليسوا الكثرة، بل ليسوا في أنفسهم كثيرين، ولكنهم الذين سيطروا على الرأي العام، وشكلوا المجتمع بشكلهم.

وبذلك ضعف المسلمون عن الدعوة إلى الله تعالى والتبليغ الذي حملوه عن النبي ﷺ، فضاعت الدعوة بضيايعهم.

٧- هانت الدعوة، ليس عند عامة المسلمين فقط، بل إننا رأينا من العلماء من يزعم أن التبليغ قد تم، وأن غير المسلمين عليهم أن يتعرفوا الإسلام من غير أن نعرفهم، وأنهم مسئولون عن جهلهم بحقائق الإسلام، ولنا مسئولون عن تعريفهم به، مادام الإسلام قد أعلن ابتداءً، وظهر أمره في الوجود، ولو كان قد ذكر عندهم بغير حقائقه، ويغير أصوله، فعليهم أن يبحثوا، وليس علينا أن نعلمهم بعد الإعلان، ونسوا قول على كرم الله تعالى وجهه: «لا يسأل الجاهل لم لم يتعلموا حتى يسأل العلماء لم لم يعلموا» ولكن تقاصرت الهمم، حتى وصل القصور إلى من تجب عليهم الدعوة.

لقد أهملنا الدعوة والتعريف بالإسلام حتى بين المسلمين، إن في أطراف البلاد الإسلامية، من لم يعرف من الإسلام إلا الشهادة، والصلاة على انحراف في أدائها، ففيهم من يجهلون أحكام الزواج ما يحل منها، وما يحرم، ففي أطراف أندونيسيا من يبيحون لأنفسهم عن جهل زواج الوثنية بالمسلم وزواج المسلمة بغير المسلم كتابياً أو وثنياً، ولا تقوم جماعة أو أحاد، بتعليمهم مبادئ الإسلام في تكوين الأسرة، وما يحل فيها، وما يحرم.

وهكذا كان التقاطع، والتدابير من أسباب جهل المسلمين بدينهم فضلاً عن أن يوفروا أحكامهم لغيرهم، ويبلغوا رسالة نبيهم في الآفاق.

ولكن مع ذلك استمر الإسلام ينتشر، لأنه في ذاته حقائق تدعو بذاتها، وفيها برهان صدقها، ودليل العرفان بحقها.

وإن الرجل يقرأ في التراجم الشائنة، فيلمس فيها النور وسط ظلمات التشويه فيؤمن، مع العوائق التي تحول بينه وبين الإيمان من أحوال المسلمين الظاهرة.

إن المسلمين قد شاعت فيهم عادات وأخلاق قد تكون حجة على الإسلام، وتتف محاجرات بينه وبين من يلتمس الحق فيه، وهو مع ذلك لا يزال ينتشر بقرآنه وحقائقه، وسنة نبيه ﷺ، ولا يزال بعض المفكرين يطلبه مع هذا الركام الذي ارتكس فيه المسلمون.

وإننا نجد التبشير النصراني يحاول أن ينشر النصرانية بين المسلمين جاهداً، ولكنه يرتد خاسئاً وهو حسير، من حيث العقائد الإسلامية والأحكام العملية التي اشتمل عليها.

ولكنه يجرى إلى النفوس التي حلها الهوى، وأفسدتها الشهوة، واستولى عليها تقليد أقوياء هنا، فيحاول أن يخرجها من العمل بحقائق الإسلام، وأحكامها، فيظن الظنون فيما جاء به القرآن، وبذلك نبئت فيه داعية الخروج على الأحكام الإسلامية، فنبتت داعية الدعاة إلى الربا بزعم أن الزمن يطلب التحلل من أحكام الله تعالى القاطعة، وداعية تقليد النصراني في الطلاق وتعدد الزوجات، وغير ذلك مما بدت أضراره عند النصراني وهو سلامة للمؤمنين، والأسرة الإسلامية أقوى الأسر في العالم تماسكا، وأقواها نظاما، ولكن هكذا كانت الآفة في النفوس، ولم تكن في الإسلام.

ولقد اجتمع مؤتمر في القدس من نحو بضع عشرات من السنين فليل لكبيرهم إن التفقات على التبشير كبييرة، ولكن لانجد من يخرجون من الإسلام إلى النصرانية، فذكر أن المبشرين لم ينجحوا في إدخال المسلمين في النصرانية، ولكنهم نجحوا في تهوين الحقائق الإسلامية في بعض المسلمين، فهل أن أن نعتبر، وندفع الشر، ونحصن أنفسنا منه، وهل أن لنا أن نعرف الناس بديننا، والعالم في حاجة إليه، لأنه الدين الذي يؤمن بالله والرسول، والعقل والعلم، وأنه لا بد أن يكون ذلك ولو بعد حين.

وجوب الدعوة بحكم تكليفي

٨- إنه من مكرور القول أن نقول إن الإسلام دين الكافة، فإن رسول الله محمد ﷺ أرسل إلى الناس كافة كما قال تعالى « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً^(١)»، وكما قال تعالى « قل يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً^(٢)»

ولقد قال رسول الله ﷺ، «كل نبي بعث إلى قومه وإنما بعثت للأحمر والأسود» فبمقتضى الأثر وتلك الآيات كان الإسلام دين الكافة، والناس جميعاً مطالبون بالاستجابة لما جاء به النبي ﷺ، وسجله القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه في محكم آياته.

وإنه لانبى بعد النبي ﷺ فهو خاتم النبيين، وقد قال تعالى في ذلك « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم، ولكن رسول الله وخاتم النبيين^(٣)».

وعلى ذلك يكون الإسلام دين الأجيال، فهو دين الجيل الذي بعث فيه محمد ﷺ، ودين الأجيال من بعده، حتى يوم الدين.

وإنه لتكليف من غير إعلام، ولأثواب ولعقاب من غير علم بالرسالة ودعوة إليها، فإذا كان الإسلام ديناً عاماً، وديناً خالداً يخاطب الأجيال كلها، فلا بد من معلمين داعين، ولا بد من دعوة دينية مستمرة متجددة يتنقل فيها بين البشر، ليتحقق العلم بهذا الدين الحنيف الذي هو دين الله كما قال تعالى كلماته : « إن الدين عند الله الإسلام^(٤)».

وقد تولى النبي ﷺ الدعوة بنفسه، وكانت دعوته إلى التوحيد وما أمر الله تعالى به، وما نهى عنه، بتلاوة القرآن بين ظهراني المشركين وبيان أحكامه للمؤمنين، كما من الله تعالى بذلك عليهم؛ إذ يقول سبحانه وتعالى : « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين * وآخرين منهم لما يلحقوا بهم^(٥)».

(٣) الأحزاب : ٤٠

(٢) الأعراف : ١٥٨

(١) سبأ : ٢٨

(٥) الجمعة : ٣.٢

(٤) آل عمران : ١٩

وكانت دعوته لمن يلاقيهم من الأقوام أحاداً وجماعات، وكان يرسل جماعات من أصحابه الذين علموا علم الإسلام، وفقهوا أحكامه إلى الأقوام يهدونهم ويعلمونهم، ومنهم من كان يطلب فقهاء في الإسلام ليعلموهم فكان النبي ﷺ يرسل، ومن الأعراب من كان يغدر بهم، وينافق في دعوتهم إلى التفقه، وهم يبيتون الشر، كما قتلوا غدرًا ستة من المؤمنين الصادقين، وكما قتلوا سبعين قتلة فاجرة، ولكن النبي ﷺ، كان يريد نشر الدعوة، وما كان يعلم ماتكنه القلوب، ولكنه كان يريد لهم أنصاراً كالحواريين، كما قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله»، كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله، فأمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة»^(١).

ولما سيطر النبي ﷺ على البلاد العربية، وصارت كلمة الله تعالى هي العليا كان يرسل لمن لم يدخل في الإسلام ممن أعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون من يدعوهم إلى الإسلام ويعلمهم وقد أرسل إلى جزء من اليمن أبا موسى الأشعري، ومعاذ بن جبل دعاء وهداة، وأرسل في الجزء الثاني خالد بن الوليد، ولكن لم يستجيبوا له، فأرسل إليهم على بن أبي طالب فدعاهم، ثم أمهم من بعد دعوته إلى الصلاة.

قام النبي ﷺ بالتبليغ الكامل استجابة لأمر الله تعالى: «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، والله يعصمك من الناس»^(٢).

ولم يكتف النبي ﷺ في تبليغه رسالة ربه بالرسول يرسلها إلى الأقاليم، قاصيها ودانيها، سهلها ووعرها، نجدها وسهلها، بل تجاوز في تبليغه إلى غير العرب، فأرسل إلى هرقل ملك الرومان يدعوهم إلى الإسلام، وجاء في كتابه ..

« من محمد رسول الله إلى هرقل ملك الروم ...

إنى أدعوك بدعاية الله، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، وإن لم تفعل فإن عليك إثم اليريسين، «يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا باننا مسلمون»^(٣).

(٣) آل عمران : ٦٤

(٢) المائدة : ٦٧

(١) الصف : ١٤

وأرسل مثل ذلك إلى المقوقس عظيم مصر، وإلى النجاشي ملك الحبشة، وإلى كسرى فارس، وغير هؤلاء، ومنهم مَنْ رَدُّ رداً جميلاً، وإن لم يستجب لدعوة الحق، ومنهم من قبح رده، وأخذته العزة بالإثم، وهو كسرى، وقد مزق الله ملكه، إذ مزق كتاب النبي ﷺ، وبعث من يقتل النبي ﷺ فقتلته رعيته.

وهكذا نجد النبي ﷺ، قام بحق الدعوة، ودعا بالحكمة لتبليغ رسالة ربه كما قال تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتى هي أحسن »^(١).

وكما قال تعالى : « وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين »^(٢) وكما قال تعالى : « وادع إلى ربك، إنك لعلى هدى مستقيم »^(٣).

وإن الدعوة إلى الله هي عمل الأنبياء، كما قال تعالى: «يأيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً * وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً»^(٤).

وهكذا كانت دعوة النبي ﷺ ماضية قائمة، كان يدعو بنفسه، ويرسله وكتبه حتى بلغ رسالة ربه، وأودع أمانة الدعوة من بعده الصحابة والتابعين وتابعيهم إلى يوم الدين.

التكليف لمن بعده :

٩- لقد خاطب النبي ﷺ بدعوة التوحيد من عاصروه من العرب ومن جاورهم، وما كان من شأن دين تطالب به الأجيال كلها في مشارق الأرض ومغاربها، أن يترك مَنْ بَعْدَهُ في عماء من أمره، ولا يعرفون شيئاً عن العقيدة التي دعا إليها ذلك الدين، بل لا يترك محمد ﷺ، الأمر من بعده من غير تكليف لمن اتبعوه، واهتدوا بهديه أن يقوموا بحق الدعوة ونشرها، لأنه لا يمكن أن يكون المخاطبون بهذا الدين، وهم الإنسانية كلها من بعده من غير هاد يدعو، ولا مرشد يبين قياساً على قوله تعالى « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »^(٥)، وقوله تعالى: « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير »^(٦)، فالنذير المحذر، والبشير المبشر، لابد من وجودهما في كل عصر.

(٣) الحج : ٦٧

(٢) القصص : ٨٧

(١) النحل : ٢٥

(٦) فاطر : ٢٤

(٥) الأسراء : ١٥

(٤) الأحزاب : ٤٦، ٤٥

وأولئك يقومون مقام الأنبياء في بنى إسرائيل، كما أشار إلى ذلك قول النبي ﷺ في قوله . « علماء أمتي كأنبياء بنى إسرائيل ».

إن الله أرحم بعباده من أن يترك الناس من بعد رسوله خاتم النبيين بوراً لهادي يهديهم ولا داعي للحق يدعوهم إليه، والعقول وحدها لا تكفي للهداية، وقد ضلت العقول وتاهت الأفهام تحت لجة الأهواء والشهوات، وعندئذ يتخذ الناس إلههم هواهم.

لذلك كان تكليف النبي تبليغ دعوته تكليفاً لأمة، وقد صرحت بذلك الآيات البيئات من كتاب الله تعالى، فقد قال تعالت كلماته : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين »^(١).

وقد دلت هذه الآية على أمور ثلاثة :

أولها - أن دعوة المؤمنين إلى الله من اتباع النبي ﷺ، وأنه من تخاذل عن الدعوة لا يعد تابعاً للنبي ﷺ .

ثانيها - أن تكليف النبي ﷺ تبليغ رسالة ربه تكليف لأمة، لا يتخلى عنه مؤمن ولا يتركه أمين .

ثالثها - أن يكون الداعي له بصراً بالأمور، يأتيها من طرقها السلوكية في رفق، لينا في دعوته، يأتي الأمور من مصادرها ومواردها مؤمناً بها على بينة من أمرها، لا تأخذها في الحق هواده، وليس للباطل عنده إرادة .

وإن الآية الكريمة في جملتها تدل على أن الإيمان وحده لا يكفي في اتباع النبي ﷺ بل لابد لكمال الاتباع من الدعوة، بل عليه لأجل الاتباع أن يسلك سبيله في الدعوة إلى الله، وهو الهادي إلى سواء السبيل، فمن اهتدى من بعد البيان فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، وما الله يريد ظلماً للعباد.

وإن الله تعالى جعل المسلمين شهداء على الناس، وجعل الرسول شاهداً عليهم، وشهادتهم على الناس تقتضي دعوتهم إلى الحق، وشهودهم لحالهم في إيمانهم وكفرهم، والرسول شهيد عليهم في أنهم بينوا شريعته، ووضحوا رسالته للناس، وقد صرح الله سبحانه وتعالى بهذه الشهادة القائمة المستمرة فقال تعالى : « وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم، وما جعل عليكم في الدين من حرج، ملة أبىكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل، وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس »^(٢) وقال تعالى :

(١) يوسف : ١٠٨ (٢) الحج . ٨٧

«وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيداً»^(١) والمعنى وعلم الحقيقة عند الله أن الله جعل أمة محمد ﷺ هي الأمة المثلى، لأن الوسط معناه الأمثل، وكانت تلك المثالية بأن يكونوا شهداء على الناس يبينون لهم الحق والإيمان، والرسول ﷺ شهيد بأن ما يبلغونه هو الحق إن استقاموا على الطريقة.

١٠ - والنصوص قد وردت صريحة مطالبة الأمة بالتبليغ كل على مقدار علمه وطاقته في التوجيه والإرشاد:

(أ) أن الله تعالى حرض المؤمنين على أن يجيئوا إلى النبي ﷺ، ولن يخلفه في أمر أمته، ولن ينصب نفسه للهداية والدعوة، يجيئون إلى هؤلاء ليعرفوا حقائق الدين، وليتفهموها ويعودوا إلى أقوامهم يعلمونهم ما تعلموا، فقال تعالى: «وما كان المؤمنون لينفروا كافة، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم، لعلهم يحذرون»^(٢)

(ب) وإن الله تعالى أمر بالهجرة في سبيله، دعاة إلى الحق هداة مرشدين يدعون إلى سبيل الرشاد، فقد قال تعالى في فضل من يهاجر في سبيل الله تعالى داعياً إلى دين الله «ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة، ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله، وكان الله غفوراً رحيماً»^(٣) فالهجرة كما يبدو من ظاهر الآية هي الفرار من ظلم الشرك، وتتضمن أيضاً إشارتها الهجرة في سبيل الحق والدعوة إليه.

(ج) ومن الدعوة إلى الله تعالى قوله جل شأنه: «موجباً لها:» ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون * ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات، وأولئك لهم عذاب عظيم»^(٤) وإن هذه الآية دلت على أمور ثلاثة:

أولها - وجوب الدعوة إلى الخير، وأي خير أعظم من الدعوة إلى الإسلام، إنه الخير، وهو دين الله تعالى، وهو الحق الذي فيه إصلاح البشر في معاشهم ومعادهم.

ثانيها - أنه بعد الدعوة إلى الخير يكون العمل على إيجاد جماعة فاضلة بين المسلمين، ترى المعروف فتؤمن به وتدعو إليه، وترى المنكر فتنهى عنه، حتى لا يسود الجماعة

(١) البقرة: ١٤٣ (٢) التوبة: ١٢٢
(٣) النساء: ١٠٠ (٤) آل عمران: ١٠٤ و ١٠٥

إلا الخير ، ويختفى من بينها الشر، فيموت في مكمنه ، ولا يرى النور ، فيذبل ويختفى في الظلام.

ثالثاً - أن السكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤدي إلى سيادة الشر في الجماعة، وإذا ساد الشر، تحكمت الأهواء والشهوات، وعندئذ يكون التفرق، ويركب كل امرئ متن هواه، فتتفرق الأمة بعد اجتماعها، وبعد أن جاءتها البينات.

(د) وإن الدعوة إلى الإسلام أخذ بمبدأ الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فلا يوجد معروف تدركه العقول، وتقربه الأفهام أكثر من الدعوة إلى الوحدةانية الكاملة، وحدانية الله تعالى في ذاته وصفاته، وأنه الخالق لكل شيء، وأنه المعبود بحق وحده، وعبادة غيره هي الضلال البعيد، وتحكم الهوى والأوهام في العقل .

يقول سبحانه وتعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله، ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم »^(١).

(هـ) ولقد ندد الله تعالى بالذين يكتُمون العلم، وخصوصاً علم الكتاب وما أنزله الله تعالى، والله تعالى يقول : « إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون * إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا، فأولئك أتوب عليهم، وأنا التواب الرحيم »^(٢).

ولاشك أن الذين لا يدعون بدعاية الله يكتُمون الحق الذي أنزله الله سبحانه وتعالى، ليعم هذا الوجود الإعلام به.

(و) إن من المقررات الشرعية في الدلالات القرآنية أن كل أمر للنبي ﷺ، هو أمر لأمته، إلا أن يقوم الدليل على تخصيص التكليف بالنبي ﷺ، وقد جاء الأمر بالتبليغ موجهاً للنبي، وبالدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، فكان هذا أمراً للناس كافة للقيام بذلك الواجب المقدس، إذ لا دليل على أنه خاص بالنبي بل قام الدليل على عموم التكليف فيما تلونا وفيما بينا، وفي الأمر لنا بأن نتخذ رسول الله تعالى أسوة حسنة نتبعه في هديه، وفي أمره ونهيه، ولقد قال تعالى: « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وذكر الله كثيراً »^(٣).

وإنه بمقتضى هذه الأسوة التي تجب على المؤمنين يكون من الحق عليهم أن يقتدوا به في هديه ودعائه إلى الإيمان، وإعلان ما أعلنه، وأتباعه في كل ما اتجه إليه من وسائل الدعوة إلى الله ورسوله .

(٢) الأحزاب : ٢١

(٢) البقرة : ١٥٩ . ١٦٠

(١) آل عمران : ١١٠

(ز) وإن الله وصف المؤمنين بأنه استخلفهم في الأرض، أي جعلهم خلفاء له ولأنبيائه، وإن مقتضى هذه الخلافة عن الأنبياء أن يقوموا بما كانوا يقومون به من واجب التبليغ والدعوة إلى الله تعالى .

وقد قال تعالت كلماته : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون،^(١) .

وإن هذا الأمر يدل على حقيقتين ثابتتين استلزمتهما حقيقة الإيمان والعمل الصالح:
الأولى - أن المؤمنين الصادقين الذين يقومون بالعمل الصالح هم خلفاء الله في الأرض، وخلفاء النبي ذي العزم من الرسل في الدعوة إلى الله تعالى، وألا يشركوا به شيئاً حجراً أو إنساناً، فالمؤمنون برسالة محمد ﷺ خلفاؤه في الدعوة إلى دينه الحكيم ، وبث حكمته وأقواله في قلوب البشر الذين لم تبلغهم رسالته، ولا يعرفون حقيقة الدين الذي يدعون إليه فذلك حق عليهم .

الثانية - أن الله تعالى وعد المؤمنين الصادقين بأن يمكن لهم دينهم الذي ارتضوه، وارتضاه الله تعالى لهم، وليس ذلك التمكين بغير جهد مبذول، ولا بغير دعوة مستمرة دائمة لا تفتر ولا تسكن، إنما هو العمل المستمر في سبيل الدعوة إلى الله تعالى، وإن ذلك فوق أنه أداء واجب، هو السبيل لسيادة الأمن، وأن يبدلهم من بعد خوفهم أمناً، وأن يكونوا في الأرض سادة لا تتداعى عليهم الأمم تداعى الأكلة على قصعتها، أو تداعى الذئاب عليهم لتفرض عليهم الذلة، ويستعبدوا في أرضهم، وتستغل غلاتهم.

وإن الحروب التي شنها النبي ﷺ حماية للحوزة، وتمكيناً للدعوة، كان يبدأ فيها بالدعوة للإسلام، فكان ﷺ يأمر جنده الذين يرسلهم إلى الأقاليم بأن يدعواهم أولاً إلى الإسلام، فإن أسلموا فإخوانهم في الدين، يعلمونهم أحكامه، ويبينون لهم هديه، وإن لم يسلموا عرضوا عليهم العهد، فإن عاهدوا على العدل في الرعية، كان لهم مالمسلمين وعليهم ما عليهم فإن لم يفعلوا كان القتال، ولا يقاتلونهم، حتى يبدؤا هم، ويقتلوا قتيلاً، فيريهم القائد المسلم بأمر محمد أن يقول لهم أما كان خيراً من ذلك أن تقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله .

وكما وردت بالتكليف بالدعوة نصوص قرآنية، فقد وردت أيضاً أحاديث داعية إلى التبليغ، بأن تبلغ ما أمر به النبي ﷺ، وما أعلمه من حقائق إسلامية:

(١) النور : ٥٥

(أ) منها أنه ﷺ أمر من شاهده من المؤمنين أن يبلغ من غاب عنه، سواء أكان من أهل جيله أم ممن يجيئون بعده من الأجيال، لافرق بين قريب منه، وبعيد عنه، فلقد جاء في خطبته في حجة الوداع، وهو ينادي الأجيال في عرفات ببيان موجز للأحكام الإسلامية « ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب » فتلك دعوة عامة لمن شهد من المؤمنين أن يعلم من غاب منهم الناس، والمشاهدة التي توجب الإعلام تشمل من حضر النبي ﷺ، وأشرقت عليه أنواره بلبائنه بالحس، ومن علم علم القرآن، وبعلمه قد صارت النبوة بين جنبيه، فإنه قد شاهد الرسول بقلبه، وإن لم يشاهده بعينه، فكان عليه التبليغ، لأنه تلقى التكليف عنه وعن الله فيجب أن يبلغ .

(ب) وقد صرح النبي ﷺ بأنه يجب أن يعم قوله، وتعمم هدايته بالرواية عنه، وتبليغ قوله وشرعه، فلقد روى الشافعي أن رسول الله ﷺ قال: « نضر الله تعالى عبدا سمع مقالتي، فحفظها، ووعاها، وأداها، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم : إخلاص العمل لله، والنصيحة للمسلمين، ولزوم جماعتهم، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم »

وإن هذا يحدث على أن ننقل أقوال النبي ﷺ إلى الأجيال من بعده، وإن أقواله ﷺ هي رسالته، وبلاغها وتبليغها، فالله تعالى ينضروا وجه الذي يفعل ذلك، ومن ذا الذي لا يريد أن ينضروا وجهه، ولا يكون له عنده وسيلة لرضاه.

ثم الحديث يدل مع ذلك على وجوب النصيحة وإخلاص العمل لله تعالى، وأى عمل أجل في العمل لله تعالى من أن يبلغ رسالة الله، وأن يحمل ما حمل النبيون، ويقوم بما يجب عليهم من التبليغ اتباعاً لهم وأخذاً بهديهم، وسلوكاً لسبيلهم، وهو سبيل الله تعالى. وبهذا نرى الحديث يتضمن في دلالاته القربية وجوب الدعوة أو الندب لها.

(ج) وإن النبي ﷺ جعل خيرية الأجيال بمقدار دعوتهم للإسلام، والأخذ بتعاليمه، فقد روى الشافعي أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وقف بالجابية بالشام خطيباً، وقال : إن رسول الله قام فينا كمقامي فيكم، فقال : « أكرموا أصحابي، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثم يظهر الكذب، حتى إن الرجل ليحلف، ولا يستحلف، ويشهد ولا يستشهد، ألا فمن سرته بحبوة الجنة فليزِم الجماعة، فإن الشيطان مع الغد، وهو من الاثنين أبعد، ولا يخلون رجل بامرأة، فإن الشيطان ثالثهما، ومن سرته حسنته، وسأته سيئته فهو مؤمن » وفي هذا الحديث بيان أن خير الأمة الذين شاهدوا وعانوا، وهم أصحابه الذين حملوا رسالته، وبلغوها الناس، ونشروا أمرها في الأفاق، ثم الذين اتبعوهم بإحسان في حمل الدعوة.

وتبليغها، وحملوا علم الصحابة وعلم الرسول إلى جيلهم، ثم الذين يلونهم، وكانت الأفضلية في نظر الفاروق الذي لم يفر فريه في الإسلام أحد مثله، على حسب قوة التبليغ وحمل الأحكام الإسلامية وتعريف الناس بها، وإن التبليغ قد أخذ يضعف من بعد حتى ظهر الكذب، والكذب أمانة الضعف النفسى، ومن ضعفت نفسه تخاذلت عن القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن النفوس القوية هي التي تفيض على من دونها، فالخير يجيء من أعلى، وينصب في الأدنى، ومن هانت نفسه لم يستطع القيام بحق غيره من الإرشاد والتهذيب .

(د) والنبى ﷺ كان يحث المؤمنين على أن يكونوا هداة مرشدين مبينين ويعد هداية النفوس لاقتل عن الجهاد في سبيل الله فضلاً فيقول لبطل الجهاد وإمام الهدى على كرم الله وجهه : « لأن يهدى الله تعالى بك رجلاً واحداً خير مما طلعت عليه الشمس وغربت . »

والجهاد بالحرب، ودفع الأذى هو لقيام الحرية الدينية، وفتح الطريق أمام الهدى المحمدي، فهو وسيلة للدعوة، والغاية هي الدعوة، ومما لا ريب فيه أن الغايات هي الصورة المطلوبة بالذات والأصل، والوسائل مطلوبة تبعاً للغايات، والمتبوع دائماً خير من التابع وأفضل، فهي المقصد بالمقصد الأول والوسائل مقصودة بالمقصد الثاني .

(هـ) وإن الراشدين من الأئمة أبي بكر وعمر وعثمان وعلى كانوا يرسلون العمال إلى الأقاليم دعاة إلى الإسلام هداة مرشدين، فوق إقامة العدل، ومنع الفساد في الأرض .

فعمر بن الخطاب، وهو الذي اتسعت في عهده رقعة الدولة الإسلامية يقول لولاته: «إني ما أرسلتكم لتضربوا أبشار الناس، ولكن لتعلموهم أمر دينهم» ومن تعليمهم أمور الدين أن يبينوا لغير المؤمنين حقائق الإسلام، وهم أحرار بعد ذلك في الدخول فيه « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »^(١).

ولقد نهج نهج الراشدين عمر بن عبد العزيز، فلقد كان يحثهم على الدعوة إلى الحق، وتعليم الناس أمر دينهم، ونشر الحقائق الإسلامية في ربوع الذين لم يدخلوا في الإسلام، واستظلوا بالعلم الإسلامى، ونعموا بالعدالة التي تعم ولا تخص، وعاش في ظلها البرئ والسقيم، والمسلم وغير المسلم .

ولقد دخل الناس بهذه الدعوات المستمرة، وبالأخلاق الإسلامية أفواجا وكثروا وكان من أسلم تسقط عنه الجزية، وتجب عليه الزكاة والكفارات، والصدقات المنثورة .

(١) الكهف : ٢٩

ولقد خشى والى بيت المال أن يخلو بيت مال الخراج والجزية من المال، فهم بالآ تسقط الجزية عمن يسلم، فأرسل إليه الحاكم عمر بن عبد العزيز يلومه على ذلك، وقال له فى كتابه الحكيم : « إن الله تعالى أرسل محمد بن عبد الله ﷺ هادياً، ولم يرسله جابياً » . ومن هذا الكتاب الحكيم يتبين أمران : أحدهما - أن الدعوة إلى الإسلام هى الهداية الكاملة، فهى عمل الرسول، وعمل من يقتدى به .

وثانيهما - أن كل ما ينافيها حرام يمنع، وإنه بذلك يتبين أن الدعوة إلى الإسلام أجمع الصحابة على وجوبها، وأجمع التابعون من بعدهم على ذلك، فهما إجماعان يؤكد أحدهما الآخر، ولا ينتقض هذا الإجماع بتقاصر الهمم من بعد ذلك .

نوع الوجوب

١٢- اتفق أهل العلم على وجوب الدعوة الإسلامية، وكان ذلك الاتفاق إجماعاً انعقد فى عصر الصحابة، ثم عصر التابعين، والإجماع لا ينقض إذا تخاذل المسلمون عنه، وقعدوا عنه، فلم يقوموا بحقه .

وكون الإسلام كان ينشر نفسه بتعاليمه، ويتعرف بعض الناس به لا يمنع من الوجوب، فالدعوة الحق لازمة ووجوبها مستمر دائم، لأنه لا بد أن يسأل الناس لم لا يعرفونه، قبل أن يعرفهم المؤمنون الصادقون، فلا يسأل الجاهل لم لا تعلم، ولا يسأل العالم لم لا يعلم .

ولكن هذا الوجوب الخاص بتعليم الناس حقائق الإسلام أهو وجوب على الخاصة، أم هو على الكافة، وبعبارة أدق أهو فرض عين أم فرض كفاية .

إننا إذا رجعنا إلى ما كان يفعله الصحابة ومن بعدهم التابعون، نجد كل من كان يعلم بالإسلام وحقائق الإيمان يعلم غيره من المشركين، وممن يتصلون به بصلة قرابة أو جوار، أو لقاء، فالدعوة كانت عامة، لإحساسهم بمسئولية التعليم لمن لا يعلم، ولأنهم يعلمون أن الإسلام هداية إلى الحق فيدعون إليه من يكون فى ضلال من أمره، وإنك إذا قرأت لقاء الذين هاجروا إلى الحبشة من الصحابة، فقد تكلموا بالإسلام، وبيان دعوة محمد ﷺ، فلقد وقف جعفر بن أبى طالب يشرح للنجاشى حقيقة الإسلام، « روت أم سلمة، وكانت وزوجها من المهاجرين أن النجاشى دعا المهاجرين إلى الحبشة يسألهم عن الدين الذى أخرجهم قومهم بسببه، قائلاً لهم ما هذا الدين الذى فارقتم به قومكم؟ فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب رضوان الله تعالى عليه فقال :

أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام ونسئ الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، حتى بعث الله تعالى إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله تعالى لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبده نحن وأبائنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة وصلة الرحم، وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، ولا نشرك به شيئا، فصدقناه وأما به واتبعناه على ما جاء به من الله تعالى فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا، وظلمونا، وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورجبنا فى جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك، أيها الملك .

قال النجاشي مجيباً عن هذا الكلام المبين بإيجاز لما جاء به محمد ﷺ: هل معك مما جاء به عن الله تعالى شئ؟

فقال جعفر رضى الله عنه: نعم .

قال: فاقرأه على، فقرأ عليه من سورة كهيعص .

فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته، ثم قال : إن هذا والله الذى جاء به عيسى ليخرجنا من مشكاة واحدة .

ونرى من هذا أن جعفر رضى الله عنه دعا عند طلب بيان الحقيقة فلم يرضن بالبيان، وكذلك الشأن فى كل مؤمن يجب عليه البيان عندما يطلب منه، ويجب عليه البيان عندما يجد أذناً مصغية، ويجب عليه عندما يجد إلى ذلك سبيلاً من غير غلظة، ولاتقحم، بل يدخل إلى الأمور من أبوابها .

ونرى أن جعفرأ بكياسته الهاشمية اختار سورة مريم التى فيها ذكر لميلاد أم المسيح وولادته، لأنه يخاطب رجلاً مسيحياً، فكان ذلك أدنى لاستجابته وأقرب لهديته، وذلك هو طريق الدعوة .

وكذلك كان كل رجل مؤمن ممن ارتبط معه برابطة صداقة أو قرابة أو جوار أو معرفة يذكر ما هداه الله تعالى إليه، وما كان سبباً لهديته موازناً بين الحق الذى اعتنقه، والباطل الذى تركه .

والنبي ﷺ كان يرسل الهداة إلى القبائل النائية، كما روينا في إرساله معاذ بن جبل وأبى موسى الأشعري، وعلى بن أبى طالب إلى اليمن، وقد أرسل وهو في مكة بعد بيعته العقبة مصعب بن عمير، يفقه الأنصار، ويحفظهم القرآن، ويعلمهم الصلاة، ويقيمها بينهم .

١٣ - وننتهي من هذا إلى أن الهدى المحمدي في العصر النبوي كانت فيه الدعوات الفردية، والتي يتولاها بهدى النبي ﷺ كل مؤمن مدرك يعرف الحق ويستطيع أن يؤديه كما يتسع بيانه، وكان النبي ﷺ يتولى الدعوة ييها بنفسه الطاهرة العالية، ويرسل أصحابه إلى الجماعات وإلى القبائل ممن أوتوا القدرة؛ ولذلك نرى أن الدعوة إلى الإسلام فرض عيني على كل قادر عليها، ووجد الفرصة سانحة لبيانها، فببنتها، وهي فرض كفاية على الجماعة الإسلامية، إذ يجب ألا يخلو عصر من الدعوة بحيث لو تقاصرت هم الآحاد، أو لم توات لهم الفرصة قام من عينتهم الدولة، أو تهيأت لهم الأسباب ليقوموا بذلك الواجب المقدس.

وإن لذلك تفصيلا نخرج عليه بالبيان غير مطنين، ذلك أن الإسلام له إجمال وتفصيل، فاما الإجمال فالدعوة إلى الله تعالى ببيان وحدانيته، وأنه لا شريك له، وأن عبادة من لا ينفع ولا يضر باطلة، ثم بيان أن الإسلام قام على خمسة أمور هي دعامته : عبادة الله وحده، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا، وحفظ ما تيسر من القرآن الكريم ولا بد أن تكون الفاتحة من بين ما يحفظ .

وبين لهم الصلاة: أركانها وترتيبها والوضوء وأركانها، وغير ذلك مما لا بد منه ليعد الشخص مسلماً، ويتمكن من أداء فرائضه .

وإن هذا واجب عيني على كل مسلم يبين الإسلام لمن يأنس بائه ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، ولن تربطه به مودة، ويحب الخير له، كما كان يفعل المؤمنون الأولون، فقد كان كل صحابي داعية لمن يعرف، فأسلم عثمان بدعوة أبى بكر وكان بينهما ود .

ولا ننسى أن المعاملة الطيبة دعوة صالحة، وأن الود يقرب، والعداوة تفرق، وأنه لا يجوز سب دينه، ولا التهجم على اعتقاده، فإن التهجم يوجد مقاومة، والمقاومة توجد الانحياز، والانحياز يضع حاجزاً بينه ومن يريد هدايته .

ولا يجادل في الحقائق، فإن المجادلة تستلزم إرادة الغلب من كل من المتجادلين، وإرادة الغلب تمنع وصول الحق؛ وإذا كان لا بد من المجادلة فإنها تكون بالتي هي أحسن، ولا تكون بالمعاندة والمغالبة، بل بالاتجاه إلى المعنى الجامع كما قال تعالى : « ولا تجادلوا أهل

الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم، وقولوا أئنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون»^(١).

وإن المودة تدنى، والمحبة تجعل السبيل إلى الإقناع معبداً، والإسلام دين الألفة، والدعوة بالانتلاف أقرب وأهدى سبيلاً، والنبى ﷺ يقول « تألفوا الناس »، ويقول « بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا » ولو جئت إلى مخالفك بما يجمع بينكما مبتدئاً به انتهيت إلى أن يوافقك فيما تختلفان فيه.

ويدخل ذلك كله فى قوله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن »^(٢).

وإن الدعوة الأحادية لمن يكون منك دانياً، وإن هذه سبيل قد أنتجت فى الحاضر إن خلصت النية، واعتزمت، واتجهت، واستجابت لأمر الله تعالى ونهيه .

هذه هى الدعوة الأحادية، وقد كان لها الفضل الأكبر عندما غفل الحكام بعد الراشدين عن الدعوة الإسلامية، وشغلوا عن ذلك بالافتراق الذى أضعف حكمهم، وتحول الافتراق إلى تنازع على السلطان وعلى مقدار ما يسيطر كل واحد على رقعة من الأرض .

وفى هذا الحين كان من الناس من انتدب الدعوة الإسلامية احتساباً، وقام بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقام بذلك الجماعات والأحاد من غير ترتيب من ولى الأمر، ولانتظيم من الحكام .

ولكن يجب اتباعاً للهدى المحمدى أن تقوم الدولة الإسلامية بذلك، كما ينبغى لها أن تعهد به إلى جماعة إسلامية تخصص لذلك، إذا كانت تريد القيام بحق الإسلام عليها فى تبليغ الدعوة، وإن ذلك الواجب لا يغنى عن عمل الأحاد، ولكن يجب أن يكون بجواره، فإنه منذ عهد الحكم الأموى، وقد وجد فى حواشى الملوك من يثير الشبهات حول الإسلام، وإن الأحاد ربما لا يتوافر فيهم المقدرة لدفع الشبهات، فإن ذلك يحتاج إلى فهم دقيق للمأثور عن النبى ﷺ .

لقد أثاروا شبهات حول معنى كلمة الله تعالى، ويحتاج رد ذلك إلى فهم للقرآن الكريم، لا يتوافر إلا عند الخاصة من العلماء، وأثاروا شبهات كاذبة حول زواج النبى ﷺ بأُم المؤمنين زينب بنت جحش، وأثاروا كثيراً حول تعدد أزواج النبى ﷺ، وإن ذلك كله يحتاج إلى أن تهيب الدولة المسلمة الأسباب ليتوافر من المسلمين جماعات دارسة فاحصة تتقدم بالحجج القاطعة المانعة للناس من تصديق هذا القول .

وفوق ذلك، فإن هناك مسائل تحتاج إلى متفقيين في الإسلام يبينونها، ويذكرون تفصيلها، كأحكام الزواج والطلاق في الإسلام والميراث، والحرمان الإسلامية بالتفصيل، فإن ذلك لا بد من معرفته بالإجمال، ولابد لكمال الدعوة أن يذهب ناس لهم ثقافة عالية إلى البلاد المختلفة يتقنون لغاتها، ويتعرفون نفوس أهلها، ومن أى طريق يمكن التأثير فيهم، وإن أولئك يجب أن يكون لهم دراسات خاصة تكون للدعاية، ويجب أن يزودوا بعلم النفس الجماعي والنفس الفردية، ومنطق الدين وسلسلة البيان وسياسة الحق والتعرف إلى النفوس، ومداراتها، وعلاج المنحرف منها .

وكل أولئك تربيتهم الجماعة الإسلامية، كما تربي المهندسين والأطباء، وكل من يقوم بفرض كفائي، يجب على الجماعة توفير الأسباب لهم ليقوموا بواجبهم الكفائي .
من أجل هذا نقول إنه يجب الواجبان الكفائي والعيني .

النصوص تثبت الوجوب :

١٥- ذكرنا في بعض ما ذكرنا من أدلة تدل على وجوب التبليغ على الأمة بعد النبي ﷺ « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر »^(١) وإن هذه الآية تدل على الوجوب على الأمة كلها وجوباً فردياً وجماعياً، والوجوب الفردي قد شرحنا مؤداه، وبيننا حدوده، وطاقت من يقومون به، وقد تكون محدودة تعرف أصل الإسلام، ولا تعرف تفصيلات أحكامه، ونريد أن يعرف كل مسلم جديداً أو قديماً أن يعرف ما أمره الله تعالى به وما نهى عنه، يقوم بذلك قوم من الأمة، والآية تومئ إلى الوجوب على الكل، وتخصيص جماعة بالتعرف الكامل لتفصيلات الأحكام، فلا يعد المسلم مسلماً إلا إذا أدى كل التكاليف الإسلامية يقوم بتعريف بعضها كل مسلم، ويبين سائرها العلماء بالدراسات الإسلامية، وليس معنى ذلك أن في الإسلام الكهنوت كالذي عند الذين اتخذوا الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله، فليس لعالم أن يقول إلا نقلاً عن كتاب أو سنة، أو اتباع الذين شاهدوا وعانوا، وتلقوا عن الرسول مباشرة، وأدركوا منه معاني التنزيل .

ولنذكر ببعض التفصيل ما ترمي إليه الآية الكريمة « ولتكن منكم أمة »^(٢) فمن في قوله تعالى منكم تدل على أحد معنيين : أحدهما - أن تكون بيانية، والثانية أن تكون للتبليغ، وعلى أنها بيانية يكون المعنى، ولتكونوا أيها المسلمون جميعاً أمة داعية إلى الخير أمرة بالمعروف ناهية عن المنكر، فإن ذلك هو أساس الفلاح، وإن هذا المعنى متلاق مع قوله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »^(٣).

(١) آل عمران : ١٠٤ (٢) آل عمران : ١٠٤ (٣) آل عمران : ١١٠

فالآيتان على أن من بيانية تكونان دعوة للأمة كلها أن تبلغ الرسالة المحمدية، ولكن ذلك لا يمنع أن يتخصص بعض المؤمنين لتفقيه الناس في دينهم بعد أن يدخلوا في دين الله تعالى كشأن كل أمر واجب على الجماعة كلها، يقوم كل واحد بما يستطيعه الواحد منفرداً ثم يخصص الجماعة له من يقوم به، ويهدي الناس إليه، وقد كان في كل جيل بعد النبي من يتعلم ومن يُعَلِّم، أي من يعرف أصول الإسلام فيقوم بها، ومن يستفتى عنده في العلم بما يجله.

وعلى تفسير (من) في قوله تعالى : منكم، بأنها تبعيضية بمعنى بعض، فالمعنى على هذا ليكون بعضكم متخصصاً في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويكون هذا متفقاً في مؤداه مع قوله تعالى : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون »^(١).

وإننا نرى أن يكون معنى الآية على أن من بيانية على الأمر بأن تكون الأمة داعية إلى الخير كقول القائل : ليكن منك رجل فاضل يدعو إلى الخير ويهدي إليه، وإن الذي سوغ لنا اختيار ذلك هو قوله من بعد ذلك : (أولئك هم المفلحون) بضمير القصر أي أن الفلاح مقصور عليهم دون غيرهم، وذلك أنسب أن يكون وصفاً للأمة كلها، ولنعد تلاوة الآية الكريمة، فإن معنى العموم يكون واضحاً بيناً، وهذه الآية تعالت كلماتها (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون)^(٢).

فالفلاح يكون مختصاً بأمة تدعو إلى الخير، وتفيض بالعلم على الإنسانية كلها تدعوها إلى أعظم خير في الوجود، وهو دين الله تعالى الحق، وإن الدين عند الله الإسلام .

وهنا قد يسأل سائل، كيف تكون الدعوة عامة، ومع ذلك نقول إنها فرض كفاية وفرض عين معاً، ونقول في الجواب عن ذلك: إن التكليف عام، بحيث يقوم كل بكفايته وما آتاه الله تعالى من علم، ولا يخلو إنسان نفسه من تبعة الدعوة، والقيام بحقها، بيد أن على الأمة واجبين أحدهما ما يقوم به كل واحد بعينه في الدعوة إلى الحق هادياً مرشداً .

ثانيهما - أن يخصص ناس لهذه الدعوة من الأمة يكون لهم فضل علم بكتاب الله تعالى وفضل كفاية بيانية، وحكمة وإدراك، كما فعل النبي ﷺ عندما اختار مصعب بن عمير لأهل المدينة معلماً مقرئاً للقرآن، وكما اختار بعد فتح مكة لقريش من يعلمهم أحكام الإسلام، ويخرجهم من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام وهديه .

(٢) آل عمران : ١٤٠

(١) التوبة : ١٢٢

وبذلك يتبين أنه التقي التكليف العام، وفرض الكفاية، وإن الإمام الشافعي رضى الله تبارك وتعالى عنه، وصف الفروض بأن الخطاب بها عام، ويدخله الخصوص، فالامة تكون كلها مخاطبة، وهو على العموم، وتركه إثم للجميع، ويجب تخصيص جماعة لذلك، والجميع يستوون في الإثم عند الترك العلماء وغيرهم، لأنهم جميعاً لم يقوموا بالواجب عليهم، ويتطبيق ذلك على الدعوة إلى الإسلام دعوة الخير الشاملة يكون كل واحد في الأمة مطالباً أولاً بالقيام بالدعوة بقدر طاقته من العلم والكفاية والبيان، ومطالباً ثانياً بالمعاونة على تخصيص طائفة من المؤمنين تكون أقدر بيانا، وأعلم بالأحكام، وتعرف أوجه الحق، والدعوة إليه، ومخاطبة النفوس عارفين بلغات من يدعونهم، ولهم جلد على الضرب في الأرض، وتحمل مشاق الأسفار في البر والبحر .

وإنه بمقتضى هذا يتحقق فرض الكفاية، وفرض العين معاً، ويتحقق تخصص الذين يقومون بالدعوة في كل مكان، ويتحقق الوجوب على الذين يقومون بالدعاية الشخصية، حيثما وجدوا للدعوة سبيلاً، وكل مؤمن على ثغرة من ثغور الإسلام يحميه، ويدعو إليه ويحث الناس على اتباع النبي الأمين ﷺ فهو رسول الإنسانية، بعث للإنسانية كلها، لافرق بين أبيض وأسود، ولاعربي وأعجمي، بل الجميع أمام مائدة الهداية المحمدية على السواء، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

١٦ - ومن هذا يتبين وجوب التعاون على الدعوة إلى الإسلام من الآحاد والجماعات، الآحاد عليهم أن يقوموا بما يستطيعون، وعليهم أن يعاونوا الطائفة التي تتفرغ لهذه الدعوة، أو تكون أقدر على نشرها والقيام بحققها، والدولة هي الجامعة لهذا الوعي في الدولة، عليها تخصص جماعات لها، عليها أن تخصص جماعات من بينها، كما تخصص جماعات للقضاء والهندسة والطب، والقيادة. فكل هذه فروع كفاية، والجماعات الإسلامية ممثلة في دولها عليها أن تخصص لكل فرض كفائي من يقوم به ويسقط به الحرج على الباقي في الدعوة التي لايمكن أن يقوم بها إلا الخاصة القادرون على مخاطبة الكافة في أقاليمها وشعوبها بلغاتهم، ومن الحق في هذا المقام أن نبين موقف العلماء في آخر عصر التقليد، ومن جاء بعدهم .

إننا نجدهم تخلفوا، وتركوا الإسلام ينشر نفسه، مع أن حال المسلمين لم تكن داعية، بل كانت منفرة لولا كتاب الله المانع من الضلال، وإن الاستجابة إليه ثابتة وأهله أخذوا يتلون مترنمين، وحاسبين أن ذلك يكفي لإقامته .

لقد رأينا المقلدين عن غير بينة فى كل شئ لا فى فروع الأحكام فقط فقد يكون التقليد فى فروع الفقه فيه تحصن من الانحراف عن معنى الإسلام واتباع هوى الحكام، ولكنهم قلدوا فى الإهمال والترك، ورضوا بأن تهمل دعوة نبيهم، تقليداً لمن أهملوها، وتجنبوا تقليد من أقاموها .

لقد رأينا من العلماء المقلدين من يرون أن أهل أوروبا وأمريكا والوثنيين عليهم أن يؤمنوا وإن لم يدعوا إلى الإيمان، ولم تبين لهم حقيقة الإسلام زاعمين أنه مادام قد أعلن وجود محمد ﷺ ودعوته، فقد وجب على كل عاقل أن يتعرف، وإن لم يكن من يعرفه، ولو كان ما يصل إليه عن الإسلام تشويها لحقائقه، ومن يعلمه يحرفه، والشعوب فى جهالة من أمره، ومع ذلك يقول المهملون لأمر الدعوة الإسلامية من العلماء : وإن على غير المسلمين أن يبحثوا ويعرفوا مادام الإسلام قد اشتهر، من غير داع يدعو، ولانذار ينذر ولاهاد يهدى، بل غير المسلمين عليهم، وهم يعدون بأكثر من ١٠٠٠ مليون أن يتعرفوا، يستوى فى ذلك القارئ والامى، والعالم والجاهل .

وإن هذا يجانف للإثم، وهو قصور وتقصير من علماء المسلمين، ومخالفة للإجماع الذى انعقد فى عهد الصحابة، ثم كان فى عصر التابعين فوق مخالفته لنصوص القرآن التى تلوناها، وأحاديث النبى التى رويناهما .

ولكن لماذا كان هذا القصور، أو التقصير؟ لكى نعرف سببه لابد أن نحدد وقته ومتى ابتداء، وما الذى اقترن به عصر ابتدائه .

(١) إننا نحسب أن ذلك القصور كان عندما انحلت الدولة العباسية، وتقطعت أجزاؤها متناحرة، يضرب بعضها بعضا، وشغل المسلمون بأمر دنياهم عن دينهم وصار بأسهم بينهم شديداً، يأكل بعضهم بعضا .

فأخذت همة العلماء تضعف، وعزائمهم تنحل، وانصرف الكثيرون منهم إلى أوهام فى الحياة والقوة، ولذلك شاعت وسيطرت بدل الحقائق الشعبذة، فانشغلوا بها عن الإسلام الذى هو حكم العقل المستقيم، والمنطق القويم، وحل التواكل، وبعدها عن كتاب الله تعالى لايدركون مراميه، وإن شغلوا به ففى غير تنفيذه، وكان المفسرون منهم يتعرفون أسرارهم ولاينفنون فى الدعوة إلى أحكامهم، ومنهم من ادعى أن القرآن المقصد الأول من نزوله هو التعبد بتلاوته والإنصات إليه، وقراءة ما تيسر منه فى الصلاة .

وإن تدهور الحكم الإسلامى وفساده ألقى فى نفوس الناس يأساً، وإذا حل اليأس

فى قلوب ضعفت الهمم عن أن تقصد قصداً صحيحاً إلى أمر من الأمور، وصار الحكام مشغولين بتوطيد ملكهم، والعلماء فى خدمتهم، ومن لا يفعل أبعد وجافوه، فكانت المجالس فى كثير من الأحوال بعيدة عن العلم والعلماء .

(ب) وليس ذلك هو السبب فقط، بل شغل العلماء عن الدعوة إلى الإسلام منازعات، كما شغلت الحكام، وانقسموا فرقاً فى مسائل حول أصول الاعتقاد، فتنازع المعتزلة مع الفقهاء والمحدثين أمداً طويلاً، وإن كان للمعتزلة مقام فى الدعوة سنذكره ولكن الجهد الأعظم كان فى مغالبتهم للفقهاء والمحدثين ومن ذلك مسألة خلق القرآن التى شغلت علماء المسلمين قرناً كاملاً أو يزيد، وأوذى العلماء الذين خالفوا الدولة التى رأت رأى المعتزلة فى عصر الملك العالم عبد الله المأمون بن الرشيد وضرب فيها الأئمة وسجنوا من أمثال الإمام أحمد بن حنبل، والبيوطى صاحب الشافعى، وراوى علمه .

(د) ومن هذا يتبين أن منازعة الآراء شغلت العلماء، كما شغلت المنازعات على الأرض الأمراء، فكان العامة والخاصة فى شغل شاغل عن القيام بالفروض وعلى رأسها القيام بالدعوة الإسلامية، وبذلك وهنت الدعوة، ولم يقوموا بحق التبليغ .

(ج) ومع هذه المنازعات الفكرية والسياسية والحرب دهمتهم من الخارج داهمة الحرب الصليبية التى شنت على المسلمين فى القرن السادس الهجرى، وأخذ الصليبيون بيت المقدس، فشغلت هذه الحملة العاتية النفس الإسلامية، شغلت نفوس العامة، واستغرقت نفوس الخاصة، وأصيب المسلمون بانكسار جعلهم يفكرون فى أرضهم، وكيف يدفعون عنها الاعتداء، ولم يفكروا فى أن يفيضوا على غيرهم بالهداية والدعوة إلى الخير، فشغلوا بأنفسهم عن أن يدعو غيرهم إلى الإيمان، وانقبضت النفوس والعقول عن أن تعمل على تبليغ الرسالة، وقد ظنوا بأنفسهم الظنون، واقتربت هذه الحروب بالحكم الفاشم من الحكام، الذى ارتكست فيه النفس الإسلامية، فى مهاوى النذل، إن لم يكن الأجنبى، فهو من الحكام الفاشمين الظالمين، وهم فى الأدنى أشد بأساً، وأكثر إيغالا .

(د) وما إن خف بأس الحملة الصليبية، وأخذ المسلمون بقيادة صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس، وأخذ المسلمون يتجهون إلى أرضهم يصلحونها وإلى نفوسهم يقوونها، حتى دهمتهم داهمة التتر فقد جاءوا إليهم من أطراف الصين كالصخرة، فخربوا الديار، وأزالوا من بغداد ما كان يسمى بالخلافة الإسلامية، وكان ذلك فى القرن السابع الهجرى، واستمر إلى الثامن، حتى دخلوا فى الإسلام، وإن لم تنته غاراتهم بانتهاهه، بل استمروا فى غواية الحرب والحروب، وصار أمر المسلمين بوراً .

وجاء الحكم العثماني، فلم يكن تفكيره في الدعوة إلى الإسلام، بل كان تفكيره متجهاً إلى حرب الغلب، وقد أفاد الأتراك من ذلك غلباً، ولم يستفد الإسلام من ذلك، لأن المسلمين قد ضعفت نفوسهم، وهانوا على أنفسهم، ولادعوة إلى الحق ممن أصاب الهوان نفسه، ولم تكن العثمانية تعمل للإسلام بمقدار عملها للسلطان، ففي عهد سليمان القانوني كانت مدافعه تدك أسوار فينّا في النمسا دكا، والصليبية في الأندلس تبيد المسلمين وتنقب القلوب، ويستغيث المسلمون في الأندلس ولا مغيث.

فما كان من المعقول أن يفكر هؤلاء الحكام في الدعوة إلى الإسلام .

تصور بلا حجة ولا معذرة :

١٧- لاجحة لمن تركوا الدعوة إلى الإسلام، فالبراهين قائمة ثابتة، وليس لهم أن يقولوا «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها»^(١) لأن الطاقة توجد لها الهمة والعزيمة، والوسع يتبع قوة الإيمان، فمن كان قوى الإيمان بالحق، كان ذا طاقة تتسع لما يوجبه الإيمان .

وإن العيب يكون لاحقاً لمن كان قادراً، ولكنه يصم نفسه بالعجز، فإن ادعاء العجز ينتهي بالعجز، ولا عذر بالضعف الحربي، لأن الضعف الحربي وليد الضعف النفسي، وإذا كان الأمراء قد تنازعوا، فإن ذلك لا ينزع الإيمان من القلوب .

إنه يجب علينا أن نعرف أن الدعوة إلى الإسلام وبيان هدايته فرض كسائر الفرائض، فهو مطلوب حتماً كسائر المطلوبات الحتمية، وإذا كان الناس لا يستجيبون في نفوسهم، كما يستجيبون للصلاة فذلك لنقص في إيمان المؤمن بحق غيره عليه، وإن عدم الإحساس بذلك، فوق أنه نقص في الإيمان هو دليل على أن المصلي لا يقوم بحق الصلاة، لأن إقامة الصلاة على وجهها تقتضي ذكر الله تعالى، ومن ذكر الله تعالى عليه أن يعلن أمر الله تعالى ونهيه، وأن يدعو الناس إلى توحيده، وعبادة الله تعالى وحده لا يشرك به شيئاً.

إنه قد ثبت من السياق التاريخي الذي أُلعنّا إليه سيطرة الباطل، فالحكام متنازعون لا يقومون بحق الحكم، ولا يحكمون بالعدل بين الناس، والأمة قد شغرت من الأخلاق، وتوالى هجوم العدو من الشرق والغرب، فالباطل قد استحکم، والظلم قد تحكّم .

ونقول هنا: إنه كلما اشتد الفساد، وجب العمل على الإصلاح، وبمقدار قوة الشر تكون العزيمة في الخير، فلا يشغل الشر عن الخير، وإلا عم الفساد، وضل العباد إلى يوم

(١) البقرة : ٢٨٦

القيامة، ولو كان استحكام الشر داعياً إلى السكون ما أقام رسول من رسل الله تعالى دعوته إلى الحق، ولا رجع محمد بن عبد الله ﷺ بمجرد أن صدمه المشركون بالإنكار، وبأدروه بالعداوة والإيذاء، وما كان ليفعل، وقد قال له ربه «فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين»^(١) ففى وسط الباطل يجب النطق بالحق، والدعوة إليه، وبمقدار قوة الباطل تكون قوة الدعوة، والداعى إلى الحق، فلجاجة الباطل لا يخفت معها صوت الحق، بل يجب أن يعلو عليها .

والياس من سماع الحق أو الاستجابة لا يمنع الدعوة إليه، بل يجب أن يعمل العالم، ولا يئس، فإن اليأس سمة الكافرين بالحقائق غير المؤمنين بها؛ فإن الله تعالى يقول : «إنه لا يئس من روح الله إلا القوم الكافرون»^(٢).

إن اليأس لم يصل إلى قلب النبي ﷺ، وقد تحمل الأذى ثلاث عشرة سنة دأباً، فما يئس فيها ساعة من زمان، وما يئس يوم أن رأى شبه إجماع من المشركين على عداوته، وما يئس يوم أن ذهب إلى تعقيف فى الطائف، فأغروا به سفهاءهم، وأدموه، بل قال مقالة الراجى ما عند ربه «اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون» وقال: «إنى لأرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله تعالى»، وما يئس ﷺ، ومن معه عندما كان جيش الإيمان قد أثقل بالجراح فى أحد، بل إنه لما علم أن المشركين هموا بأن يعودوا للقضاء على جيش الحق، دعا الجيش الجريح لأن يعود إلى الميدان، بل إلى تتبع آثار المشركين، ولم يدع إلا من ذاق الجرح، وابتلى فى الميدان، فصديق عليهم قول الله تعالى «الذين قال لهم الناس، إن الناس قد جمعوا لكم، فاخشوهم، فزادهم إيماناً، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل»^(٣).

هذا رسول الله ﷺ فى تبليغه الدعوة ما دخل قلبه يأس .

قد يقول قائل هذا مقام النية، فهو مؤيد من الله تعالى، والوحى كان ينزل عليه، والله يمدّه بنصر من عنده، فهو المتبوع فى الحق، فهل يبلغ التابع درجة المتبوع .

ونقول فى الإجابة عن ذلك إن الله عاصم رسوله من الناس، ومانحه التأييد والتثبيت ولكن جعل سبحانه وتعالى عمله بشرياً يخطئ ويصيب ويتنصر وينهزم، ويحقق الله تعالى له الغاية بنصره وتأييده، ولكن بسبب من أعماله وقوة إيمانه هو وأصحابه ونصرهم لله تعالى بالعمل الصالح، واتخاذ الأسباب، كما قال تعالى «إن تنصروا الله ينصركم، ويثبت أقدامكم»^(٤).

(١) الحجر : ٩٤ (٢) يوسف : ٨٧

(٣) آل عمران : ٧٣ (٤) محمد : ٧

ولأن عمل الرسول ﷺ في أسباب النصر والدعوة بشري، كان على أصحابه أن يقتدوا به ويسلكوا سبيله، ويتبعوه ليبقى التبليغ موصولاً غير مقطوع، وتبقى كلمة الله علياً دائماً، ولذلك قال تعالى : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً »^(١).

وإن الدعوة فيما يمكن فيه الأسوة، وهي العمل بمقتضى البشرية، أما الوحي والتثبيات الرباني من الله تعالى، فهو من أوصاف النبوة، لا يسمو إليه أحد من العباد .

وننتهي من هذا البيان أن التبليغ واجب على المؤمن على النحو الذي بيناه من حيث إنه واجب كفائي وعيني معاً، وأنه ليس للمسلمين أن يتقاصروا عن أدائه ولا يعذروا لأنفسهم، إذا أصابهم أمر ضعف في سبيل الله، فالوهن من التقصير في الدعوة إلى الإسلام، وتبليغ الهدى إلى أهل الأرض جميعاً، لأن الرسالة المحمدية يخاطب بها الناس كافة لافرق بين أبيض وأسود وأحمر وأصفر، إنهم إن استمروا على التبليغ كانوا طالبين للعلو بإعلاء الحق، فلن يهنوا ولا يستكينوا ولا يراموا بذل أبداً، ويكونون الأعزة، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، ولن يكونوا طعمة لأهل الشر في الأرض وطفاتها، ولن يسيروا في غمرة التاريخ ولا يملكوا من أمرهم شيئاً .

إن العالم يبلغ غير المسلمين فيه أكثر من ألفى مليون أو يزيدون، ونحن مسئولون عن استمرارهم على الكفر، لأننا لم نقدم لهم أى دعاية هادية فيجب أن نتقدم بدعوتهم إلى الهدى ودين الحق كما تقدم النبي ﷺ، ولتكن دعوتنا ابتداء ببيان حقائق الإسلام في ربوعنا بكتب تكتب، وبكتابات تنشر، وبموازنات علمية دقيقة بين الوحدانية والثنية، وبيان المبادئ موازنة بما عليه الأقوام من أوهام، والله سبحانه وتعالى عليم خبير .

الدعوة إلى الإسلام في حياة أصحاب النبي ﷺ

١٨ - انقطع الوحي بوفاة النبي ﷺ ولكن بقي أعظم ما جاء به الوحي، وهو القرآن الكريم الذي نزل على قلب محمد ﷺ، وأقرأه قراءته، وعلمه ترتيله، وقال له، « لاتحرك به لسانك لتعجل به * إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه »^(٢).

(٢) القيامة : ١٦

(١) الأحزاب : ٢١

فإذا كان الوحى انقطع فقد بقى أعظم آثاره وثماره، وإذا كان النبوى ﷺ قد مضى إلى ربه بعد أن أدى رسالته، فقد أكمل بيانها، وروى أخباره وأحاديثه أحكامها، ولذا قال النبوى ﷺ: « تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدى أبداً : كتاب الله تعالى، وستى . »

ولقد أدى صحابته الأولون من بعده أمانته، وقد كمل الدين، وقد أعلم الجزيرة العربية كلها بهذا الدين، وتجاوزت أخباره أقطارها، إلى من يجاور العرب من الفرس والروم والشام ومصر والحبشة، وبعض هذه الأخبار سارت بها الركبان، وتسامع العرب ومجاورهم بأمر الإسلام دين التوحيد والعدل والإخاء الإنسانى والوحدة الإنسانية .

وتولى النبوى ﷺ إعلام كل الدول المجاورة بالإسلام بكتب أرسلها، وببعوث بعثها .

١٩- وإن الرعيل الأول من الصحابة أحق من حمل رسالته، وقام على نشرها، والنود عنها .

وقد اختبرهم الله تعالى بالردة بين أكثر الأعراب الذين قال الله تعالى فيهم: «الأعراب أشد كفراً ونفاقاً، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله^(١)»، وقال سبحانه فيهم: «قالت الأعراب آمنا، قل لم تؤمنوا، ولكن قولوا أسلمنا، ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم»^(٢).

فالإسلام إذا كان قد دخل الأرض العربية وما جاورها، وأذعنوا لأحكامه الظاهرة فالإيمان لم تخالط بشاشته قلوب بعضهم، فارتد أكثرهم، ولم يكن ارتدادهم بعد إيمان، لأنهم لم يؤمنوا كما ذكر الله سبحانه وتعالى فى كتابه الحكيم، وهو أصدق القائلين، لأن من يدخل قلبه الإيمان بالحق لا يخرج منه، إنما يرتد إلى الشرك من أسلم بظاهر من القول، ولم يخالط الإيمان قلبه .

ارتد العرب، وحاولوا أن يساوروا المدينة، ولكن عزمة خليفة رسول الله ﷺ ومن معه من أصحاب الرسول الكرام وحوارييه الأطهار، ردوا كيدهم فى نحورهم، وأبو بكر بعزمته القوية أعز الإسلام فى الجولة الأولى، ثم أرادوا وقد عضتهم سيوف الحرب أن يقيموا الصلاة دون الزكاة فرفض إلا أن يدفعوها وقيموا الصلاة، ورفض قول من يفرق بين الصلاة والزكاة لأن كليتهما ركن من أركان الإسلام الخمسة، وفوق ذلك فإن الزكاة أمانة الطاعة والانقياد، وقال : سلم مخربة أو حرب مجلية.

(١) التوبة : ٩٧ (٢) الحجرات : ١٤

وقد رأى عمر رضى الله عنه أن من الرفق أن يقبل الصلاة وقال لخليفة رسول الله ﷺ: يا خليفة رسول الله تألف الناس وارفق بهم، كيف تقاتلهم، وقد قال رسول الله ﷺ «أمرت أن أقاتل الناس، حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم ونفوسهم إلا بحقها، فأجاب الصديق لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، وكأنه يقول: إن من حقها أداء الزكاة ثم عتب على عمر في موقفه هذا، وقال له:

ويحك يا بن الخطاب رجوت نصرتك، وجئتني بخذلانك!! أجبنا في الجاهلية خوار في الإسلام، إنه انقطع الوحي، وتم الدين، أو ينقص وأنا حي؟» .

كانت هذه العزمة البكرية منقذة للإسلام، عاونه فيها الصديقون من أصحاب رسول الله ﷺ، فكان على كرم الله وجهه على المدينة بجيش حارس رابط، وإذا كان عمر رضى الله تعالى عنه قد خالفه لم يمنعه ذلك من المعاونة، وكان الفاروق سريع الرجوع إلى الحق إن بدت معاملة بعد خفاء، فسرعان ما خطأ نفسه، ورأى في عمل الصديق رأى الصائب النافذ إلى الحق في صميمه من غير هوادة:

٢٠ - ومع أن هذه الحرب كانت شاغلة للمؤمنين، قد صرفوا فيها جهودهم، فإنه أنفذ أمر النبي ﷺ في أمر يتعلق بالدعوة ولم يؤجله، وكيف يتردد في تنفيذ أمر النبي ﷺ، فقد كان النبي ﷺ أمر أسامة بن زيد على جيش يذهب إلى الشام، وأوصى بذلك، وشدد في تنفيذ وصيته، وما ذهب ذلك الجيش لينتقم من مؤتة، كما ذكر بعض المؤرخين، فقد كانت تبوك رادعة قاطعة مبعدة نفوذ الرومان عن أطراف البلاد العربية، ولكن كان البعث النبوي للدعوة الإسلامية في أطراف البلاد العربية بين الذين خلعوا ربة الرومان، وانضموا إلى الجيوش الإسلامية في غزوة تبوك، ويدل على ذلك أمران:

أحدهما: كان في وصية النبي ﷺ، أن النبي أوصى بأن يكون في الجيش أبو بكر وعمر، وهما شيخا المسلمين، ولهما فضل علم بالإسلام في كلياته وجزئياته، فما كان مثلهما ليرسلا إلى الميدان إلا لحكمة نبوية أرادها نبي الحكمة محمد ﷺ، وهي تعليم تلك القبائل الإسلام، لقد أرسل من قبل معاذ بن جبل، وعلى بن أبي طالب، وأبا موسى الأشعري إلى اليمن ليعلموهم الإسلام بعد أن يدعوهم إليه، فكان المنطق ألا تحرم القبائل المتاخمة للرومان من الهدى المحمدي والدعوة إلى الإسلام وتعليم أحكامه، لقد كان الإرسال إلى اليمن في العام العاشر، فكان من منطق الحكمة أن يرسل الشيوخين أبا بكر وعمر لمثل ما أرسل إليه العلماء الأولون من الصحابة .

فكانا معلمين في هذا البعث وليس محاربين .

الدليل الثاني : أن البعث الذي أوصى به رسول الله ﷺ لم يلاق قتالا وجاء لم ينقص منه أحد، ولم تذكر كتب السيرة أنه لاقى قتالا، فلم يذكر من قتل من الأعداء، كما لم يذكر من لقي، فهو لم يكن بعثاً حربياً، ولكن كان بعثاً هادياً .

ولم يذهب الصديقان في الجيش، لأن الأمر كان يستدعى بقاء أبي بكر، وقد اختاره المؤمنون خليفة لرسول الله ﷺ، والمدينة يساورها المرتدون، فيكون قد ترك وراءه من العورات أضعاف ما هو سائر إليه، ولذلك استأذن أسامة الذي أمره ﷺ أن يترك له عمر، ليستعين برأيه، ولتكون عصاة الحق كلها معه، فبقى، وكان مستشار أبي بكر، رضى الله تعالى عنهما .

ولقد كان تنفيذ بعثة رسول الله ﷺ ذا شأن في تخذيل المرتدين، ذلك أنه عندما ذهب إلى مؤتة مجتازاً القبائل في الجزيرة العربية كان مرهباً للمرتدين، مثبتاً لهم أن الجيش الإسلامي فيه قوة تقاومهم، وترد كيدهم في نحورهم، ولله الكلمة العليا عليهم، والحق فوقهم، وأنهم لامحالة مخذولون، بعون الله تعالى، فلن يغلب جيش الإيمان .

بعد أن فرغ المؤمنون من الردة، اتجه الصديق إلى الدعوة إلى الإسلام، فقد جمع العرب من بعد النصر، وتصفية العرب من فلول المرتدين، وتوجه بهم إلى الدعوة .

دعوة الصحابة إلى الإسلام

٢٠- يقول الله تعالى في كتابه الكريم : « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم » إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون * ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا، فإن حزب الله هم الغالبون^(١) .

إذا كانت قد ارتدت غالبية الجزيرة العربية أو أكثر من نصفها، فقد كان ذلك إيذاناً بأن يبدل بهم الله خيراً منهم، ولقد قال بعض المفسرين : إن الذين وعد الله تعالى بأن يأتي

(١) المائدة: ٥٤ - ٥٦

بقوم يحبهم ويحبونهم هم الفرس، وقد يكون ذلك القول متفقاً مع السياق التاريخي، لأن من فتح الله على المسلمين أرضهم الفرس، ولكن نقول، إن الذين وعد الله تعالى بهم من الفرس، والشام، ومصر .

مهما يكن من ينطبق عليه النص الكريم من الجماعات والقبائل، فإن وعد الله تعالى هو الصدق الذي لا ريب فيه، فقد انبرى الصديقان أبو بكر وعمر من بعد انتهاء أمر الردة إلى الاتجاه إلى من وراء العرب من الفرس والعراق والشام ومصر، وانسابت الجيوش الإسلامية داعية إلى الله وإلى رسوله، وإلى الحق المستقيم، والله تعالى يؤيدهم بنصره لتبليغ رسالته .

أساليب الدعوة في عهد الصحابة ومن وليهم

٢١- اتجهوا أول ما اتجهوا إلى القرآن الكريم الذي هو سجل الدعوة، وقد كان محفوظاً في الصدور ومكتوباً بأمر النبي ﷺ، ولكن في رقاع وقد توزعتها أيدي أصحابه .

وخشى الصحابة بإشارة عمر الفاروق أن يموت من حفظوا القرآن، وجمعوه في صدورهم وقد رأهم يتهافتون على الحرب لمقاومة الردة، وإخضاع أهلها، تهافت الفراش، فيضيع القرآن، وهو سجل الإسلام، بل سجل النبوات، والرسالات الإلهية للأنبياء الذين عرفوا في الشرق العربي وما حوله .

اتجه إلى جمع المتناثر من الرقاع مطابقاً لما يحفظون في صدورهم، ويكون في مصحف تحقيقاً لقوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »^(١).

جمعوا المصحف بجماعة من الحفاظ سلخوا في جمعه أثق الطرق، واتخذوا في ذلك ما يأتي:

(١) هم حافظون للقرآن الكريم مرتباً ترتيبه المتواتر كل آية في موضعها بتوقيف من جبريل عن الله تعالى، وحفظه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، كما راجع جبريل روح القدس الأمين، وكل سورة في ترتيبها، وأعلنوا في المدينة الطاهرة أن من عنده رقعة كتبت بإملاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقدمها لهذه الجماعة الحافظة، وفيها زيد بن ثابت وأبى بن كعب وغيرهما من الحفاظ.

(١) الحجر : ٩.

(ب) من أحضر آية أو آيات لهذه الجماعة الحافظة لا يقبل ما يأتى به إلا إذا كان معه اثنان يشهدان بأنه كتب فى عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بإملائه، فإذا جاءت هذه الشهادة الكاملة نون ما جاء به.

جمع المصحف بهذه الطريقة المحكمة، وما كان كتابة جديدة، بل نسخ للمكتوب فى حياة النبی صلى الله تعالى عليه وسلم، فقد كتب القرآن كله بلغة قريش فى حياته عليه الصلاة والسلام.

(ج) ولما نسخ ذلك المصحف بما كتب فى حياته الجلیلة الكريمة عليه الصلاة والسلام، لم ينقط ولم تضبط حركات الحروف بما يسمى شكلا، وذلك لسببين:

أولهما - أن تكون قراءته بطريق مقرئ يقرئه، لأن القرآن ليس متواتراً بلفظه وحروفه فقط، بل هو متواتر بطريقة قراءته وترتيبه، ومده وغنه، كما قال تعالى: «ورتلناه ترتيلاً»^(١) وكما قال تعالى فيما تلونا من قبل: «لا تحرك به لسانك لتعجل به * إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه»^(٢).

فالقرآن متواتر بلفظه وحروفه وترتيبه الذى تلقاه النبی صلى الله تعالى عليه وسلم عن جبريل عن الله تعالى بتواتر.

ولقد حفظ المصحف الذى كتب فى عهد الشيخين أبى بكر وعمر فى بيت أم المؤمنين حفصة.

وكان القرآن يتلى فى كل الأمصار التى فتحت، لأنه أعظم داع، ويقرأ فى الأمصار التى أنشأها المسلمون فى عهد أمير المؤمنين عمر رضى الله تبارك وتعالى عنه وهى البصرة والكوفة.

وكان يقرئه المقرئون فى كل الأمصار لأنه لب الإسلام، ولسان الدعوة إليه، يتلونه ويتدارسون، وعلماء الصحابة كابن عباس وابن عمر وابن مسعود يعلمون الناس أحكامه.

ولقد اختلف المسلمون فى قراءته ببعض لهجات عربية قد نسخها النبی ﷺ، وأبقى لغة واحدة هي لغة قريش، وكانت قراءته باللغات العربية لتتيسر تلاوته، ثم نسخت القراءة باللغات ماعدا لغة قريش، فكان من الناس من يقرأ ببعض اللهجات غير عالم بنسخها، فاضطرب بعض القراء، وكان اختلاف عمل نو النورين عثمان على حسمه.

(١) الفرقان: ٣٢. (٢) القيامة: ١٦ - ١٩.

وفى سبيل ذلك جمع الجماعة التى ألفت فى عهد الصديقين أبى بكر وعمر، وضم إليها سعيد بن العاص وطلب إليها أن تجمع القرآن مرة ثانية، واتبعت الطريقة التى اتبعتها فى المرة الأولى هى جمع الرقاع التى كتبت فى عهد الرسول، والإشهاد على كتابتها فى عهده عليه الصلاة والسلام، وانتهت الجماعة من كتابة المصحف الجديد فى تكوينه، وكان المصحف الأول محفوظاً عند أم المؤمنين حفصة، فقابلت الجماعة مع ذى النورين عثمان بينه وبين المصحف الذى كتب، فكان التوافق بينهما كاملاً.

وبعد هذا الاستيثاق أقر بأن ينسخ من هذا المصحف الإمام نسخ على قدر عدد الأقاليم وأبقى الأصل فى المدينة.

وأمر رضى الله تعالى عنه بحرق المصحف الذى كان مودعاً عند أم المؤمنين، فحرق وكان بعد وفاتها رضى الله تعالى عنها، ولكن الأمر كان فى عهد عثمان.

والسبب فى أمره بحرقه أنه خشى بعد وفاتها أن يقع تحت يد من يدعى الاسلام من المشركين أو اليهود أو النصارى، فيجرى فيه تصحيفاً أو تحريفاً، ويدعى أنه المصحف، ويكون الاضطراب، ولا يمكن أن تجرى الأيدى بالتصحيف أو التحريف فى غيره من نسخ المصحف الإمام، لأنه كان محفوظاً بدار الإمارة فى كل بلد عربى إسلامى، وقد حفظته كل الأعصار.

وقد كتب مصحف الإمام، وما نسخ منه غير منقوط، ولا مشكول، لكيلا لا يستطيع أن يقرأه بغير مقرئ يقرأ عليه ليحقق تواتر القرآن محفوظاً فى الصدور، وليس مكتوباً فى السطور فقط، فإن ما يدون فى السطور يقبل التحريف والتعديل والتصحيف، أما ما يحفظ فى الصدور، فإنه لا يجرى فيه تحريف، ألم تر إلى اليهود فى عصرنا هذا عندما أرادوا الاعتداء على القرآن حاولوا أن يحذفوا ويغيروا فى المصاحف، ولكن رد محاولاتهم حفظ القرآن فى الصدور.

ولذلك اقترحنا إحباط محاولتهم بأمرين:

أولهما - بإرسال الحفاظ فى البلاد التى حاولوا فيها هذه المحاولة ليقرئوا الناس القرآن، فيحفظ فى صدورهم لكيلا يدخل التحريف عليهم.

وثانيهما - أن ترسل إليهم المصاحف المسجلة التى تتلى عليهم.

ومهما يكن من أمر عداوتهم، ومحاولاتهم، فقد ارتدوا على أدبارهم خاسئين، وعلموا أنه فوق طاقتهم وطاقة البشر أن يحرفوا كتاب الله، وقد ذكر الله تعالى أنه حافظه، وإن يخلف الله وعده «إن الله لا يخلف الميعاد»^(١) وقد وعد، فقال كما تلونا من قبل : «إنا نحن نزلنا الذكر، وإنا له لحافظون»^(٢).

٢٢ - كان القرآن منار الدعوة، وحصن الدعاة.

فعندما اتجه الدعاة في عصر الصحابة إلى الفرس والعراق ومصر، كان معهم القرآن، يعلمونه للناس ويحفظون الناس ما تيسر منه، كما كان النبي ﷺ عندما أرسل دعائه إلى يثرب، أرسل معهم القراء يقرئونهم القرآن.

وكان في الأقاليم غير العربية تعلم أحكامه وتحفظ آياته، للدعاية الدينية أولاً، وللغة العربية ثانياً، فيمكن تدوين الدواوين بها، وقد صارت الإمرة للعرب، والدولة لهم.

أما الدعاية الدينية، فإنه كان يجب على كل مسلم أن يحفظ قدرأ من القرآن يؤدي به عبادة الصلاة، وهي عمود كل دين، فلا دين من غير صلاة، كما قرر النبي ﷺ، وفوق ذلك فإنه سجل الأحكام الإسلامية، وهو المرجع الأول لها، فلا يمكن أن يستغنى عن تعليمه وتحفيظه.

والقرآن بذاته كان دعوة للإسلام، لأنه بما اشتمل عليه من أخبار الأولين، وما فيه من شرائع وأحكام، وعلوم إنسانية، وتوجيه للكون ودراسته، بكل ذلك، وهو بعض مما اشتمل عليه من هدى وتوجيه داعياً للإيمان كان كافياً للدعوة إذا أحسن بيانه.

وإذا كانت الفيدا وهي كتاب عند البراهمة مؤثرة في نفوسهم، فالقرآن، وهو علم وهداية وشفاء لما في الصدور أشد دعاية وأقوى تأثيراً.

وقد عكف العلماء عليه يتدارسون، ويتعرفون مبادئه وأحكامه، ولم يكن غريباً أن نجد كثيراً من الفرس في صدر الإسلام قد انصرفوا إلى فهم القرآن الكريم، وكان كثيرون من تلاميذ الصحابة الذين لازموهم - من الفرس وغيرهم من الذين دخلوا في الإسلام في عصر الصحابة، ومن جاء بعدهم.

وإن تلاوة الصحابة للقرآن في البلاد التي كانوا يفتحونها، كانت تجذب القلوب إليهم بترتيله، وجمال فواصله، ونغماته العربية، وحلاوته وتلاوته، فالقرآن كان هو وحده داعية للإسلام.

(١) آل عمران: ٢ (٢) الحجر: ٩

السنة وسيرة الرسول:

٢٣- أخذ الصحابة يعرفون بالرسول ﷺ، وينشرون ذلك في وسط البلاد التي يفتحونها، ويذكرون سيرته قبل البعثة، وقد كان الأمين في قريش، ويذكرون إرهابات النبوة، وما كان عليه من أخلاق قبل البعثة ولازمته بعدها.

وسيرة النبي ﷺ أعظم دعاية للمسلمين، فلم يكن في أخلاقه عليه الصلاة والسلام، إلا ما يدل على صدقه حتى كان الأعرابي: يؤمن برسالته لمجرد رؤيته، وحتى لقد قال له أعرابي أنت الذي تقول عنه قريش إنه كذاب، والله ما هذا بوجه كذاب.

ولما سأل هرقل عندما جاءه خبر الدعوة المحمدية بكتاب رسول الله ﷺ، ولقى أبا سفيان كان سؤاله عن سيرة الرسول ﷺ عن شخصه وأخلاقه، قبل أن يسأل عن حجته، وما جاء به.

سأله عن نسبه وعن خلقه وصدقه، وعما يتعلق بأسرته، وعن وفائه وعن أتباعه أهم الأغنياء الأقوياء، أم العبيد الفقراء والضعفاء.

وقد أعلن لمن عنده بيان أبي سفيان المسئول، أن صفاته هي صفات النبيين الصديقين، ولذلك نقول، إن سيرة رسول ﷺ أعظم دعاية للإسلام بعد القرآن.

وإننا نحسب أن سيرة الرسول وكمال عقله وخلقه، واستقامة نفسه، وسلامة ما يدعو إليه، كل ذلك في نفسه دعوة إلى الإسلام في وسط غياهب الجهالة في الماضي، وهو لا يزال القوة الداعية إلى الإسلام في عصرنا الحاضر، وإننا نجد بعض الناس يسمعون إذا علموا السيرة النبوية وأدركوا عقله وبعده عن الأوهام والخرافات التي تسود العامة، وتستهيى تفكير السذيج منهم.

وأما أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته، فإنها نعم الهادى إلى سواء السبيل، وإنه في عصر الصحابة كان الاتجاه إلى السنة أمراً لا بد منه، فقد كانت الحوادث تتوالى ويتعرفون حكمها، وما يقضى به، فكانوا إذا لم يجدوا حكماً في كتاب الله تعالى تعرفوا الحكم من سنته الشريفة غير مدخرين جهداً في روايتها، وتنافس الثقات في النقل عنه ﷺ واتخذ الصحابة الكرام تلاميذ لهم من الموالى الذين كانوا من الفرس وغيرهم فكانوا رواة الحديث عن رسول الله ﷺ فنافع مولى عبد الله بن عمر، والحسن البصرى ومحمد بن سيرين وغيرهم كثيرون من الموالى الذين أسلموا على أيدي الصحابة بالدعوة الإسلامية

العامّة في الحروب، وخاصة بين الذين جئ بهم أسرى وأقاموا بالمدينة وارتضوا الإسلام، وتعلموا بتعليم الصحابة الكرام فأخذوه ممن شاهدوا وعابنوا، وكانوا من بعدهم كمن شاهدوا وعابنوا، وبذلك استنقوا الإسلام من النبيين الدافقين الكتاب بما أخذوه من تفسير لمعانى كتاب الله تعالى من القرآن الكريم، وثانيهما ما رأوه من سنة رسول الله ﷺ، وكان الكثيرون منهم من رواة السنة أهل الثقة فيها.

وهكذا كانت الدعوة الإسلامية في عصر الصحابة متجهة في بعض نواحيها إلى تعليم الأسرى الذين يجيئون إلى المدينة، يعلمونهم الدين، ويصطفونهم بالموادة الواصلة الهادية، وجعلوا منهم مدرسة علمية، علموها التفسير وعلموها الحديث، وعلموها فقههم، وكان منهم رواة الفقه إلى من جاء بعدهم، وعلموا بذلك أقوامهم وكان منهم دعاة مخلصون، ومفسرون وحكماء وعلماء نقلوا علم الإسلام إلى من جاءوا فكانوا حملة العلم، وكان لهم فقهه، ثم حملوا إلى بعض من هو أفقه منهم.

وكانت الدعوة متجهة إلى تعليم غير المسلمين في الجهاد، فقد كانت الدعوة إلى الإسلام هي روح الجهاد، وما كان إلا لحماية الدعوة، لا لإكراه الناس على الإسلام، بل كان لفتح الطريق إلى الدعوة إلى الإسلام وحمايتها، ومن شاء بعد ذلك فليؤمن، ومن شاء فليكفر، ومن آمن كان من المسلمين وكان أخاً في الدين، والمسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يسلطه، ولا يحقره ولا يخذله، فيكون عوناً للمسلمين في الدعوة إلى الإسلام والجهاد في سبيل الله تعالى.

ومن لم يدخل في الإسلام طوعاً واختياراً، ورضى بالإقامة بين المسلمين لا يضار في عقيدته.

الجهاد والدعوة إلى الإسلام

٢٤- لم يكن الجهاد في الإسلام لغرض الفارات على الجماعات والأمم، ولم يكن في أصل شرعته للقلب والقهر، فما كان محمد ليكره الناس على الإسلام فقد قال تعالى: «لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي»^(١) وقال تعالى: «أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين»^(٢) ولم يكن محمد ﷺ ملكاً، يفرض سلطانه على الناس بقوة القلب والحرب ويفرض الحكم على الناس كرهاً، وإجباراً.

(١) البقرة: ٦ (٢) يونس: ٩٩

ولكن كان محمد ﷺ بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فكان عليه الصلاة والسلام يجاهد ليفتح الطريق أمام التبشير والإنذار، أى أمام الدعوة إلى الحق والتوحيد الخالص.

وكان لابد من الجهاد، لأنه ﷺ بعث رحمة للعالمين، وكان العالم فى هذه العصور يرزح تحت نير الملوك الذين طغوا فى بلادهم، لايهمهم إلا فرض حكمهم رضى الناس أو كرهوا، وكانت الديانات القائمة تفرض لهم الطاعة المطلقة وإن لم يرتضوها سامهم أولئك الهوان والعذاب.

ولذلك ما كانوا يسمحوا بأن يدخل أرضهم من يدعو شعوبهم إلى عبادة الله وحده لا يشركون به شيئاً. وفى الديانات التى اعتنقوها بعد أن حرفت وغيّرت وبدلت طاعتهم، ففرض سلطانهم بالقهر والغلب والسلطان، وما كانوا ليرتضوا ديناً يفرض العبودية لله وحده لا لأحد من الناس أياً كان وصفه ملكاً قاهراً، أو متغلباً عادياً.

وفوق ذلك لقد أتى محمد بمبدأ المساواة الإنسانية بين الحاكم والمحكوم، والغالب والمغلوب، وأتى محمد بمبدأ العدالة فى كل شعبها، أتى بالعدالة فى تطبيق الشرع، وبالعدالة الاجتماعية، فكان لابد أن يقاومه الملوك بأن يحاجزوا بين هذه الدعوة المحررة للشعوب التى ترزح تحت نير حكمهم العاسف الفاسد.

ولذلك وقفوا دون هذه الدعوة: أرسل النبى ﷺ إلى كسرى، فمزق كتابه، وإلى هرقل فلم يرد، وأرسل إلى المقوقس، فرد رداً حسناً ولم يؤمن، وهكذا ...

ولكن لابد أن يبلغ محمد ﷺ، وأن يتقدم بها وقد وعده الله تعالى بأنه يعصمه من الناس حتى يبلغ دعوة ربه ورسالته إلى خلقه، وقد قال تعالى «يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، والله يعصمك من الناس»^(١) فإذا كان الملوك والطغاة لا يمكنونهم، فلا بد أن يتمكن منهم، ويخلو له وجه الناس ليتلقوا دعوة الحق، ولهم الخيار فى أن يتبعوا محمداً ﷺ، أو يختاروا الجيت والطاغوت.

كان القتال إذاً والملوك بادروا بالاعتداء، فكسرى أرسل من يقتل الرسول، وهرقل قتل بعض المؤمنين، وما كان لمحمد وأصحابه من بعد أن يتركوا الطاغوت يتحكم ويحكم، بل لابد من فتح الطريق إلى الحق، ومنع الفساد والظلم والحكم بغير الحق، وبغير ما أنزل الله «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل على العالمين»^(٢).

(٢) البقرة : ٢٥١.

(١) المائدة : ٦٧

إذن فالقتال كان للدعوة، وليس للإكراه على الإسلام، إنما كان القتال لمنع الإكراه على البقاء على الكفر، ومنع الظلم والعدوان وإرهاق الشعوب من أمرهم عسراً، كما قال تعالى : «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين لله، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين»^(١).

ولم يكن القتال محبوباً للنبي ﷺ، إنما المحبوب المطلوب هو الدعوة إلى الحق مستشهدين في سبيله، وإذا قال تعالى «كتب عليكم القتال، وهو كره لكم، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون»^(٢).

كان المؤمنون كارهين للقتل وإزهاق الأرواح ولكن كانوا راغبين في الدعوة إلى التوحيد وأن يخلو وجه الناس للحق والحرية والعدل، والإيمان بالله وحده الذي لا شريك له.

صورة الحرب الإسلامية :

٢٥- كانت تسمية الحرب الإسلامية جهاداً فيها إيماء إلى أنها ليست حرب قتل وغلب، ولكنها دعوة للحق، وحماية له من أن يعتدى عليه، وفتح الطريق ليصل إلى النفوس، وإزالة الحواجز المانعة، ولذلك كان على القائد الذي يقود جيش الإسلام إلى الجهاد، أن يدعو إلى الإسلام فإن أسلم من يدعوهم، فهم إخوان مسلمون علينا حمايتهم ولهم أخوتنا، وإن لم يسلموا عرض عليهم العهد على أساس إقامة الحق، ومنع الملوك من أن يظلموا رعيتهم، وأن يفتحوا الطريق للدعوة الإسلامية، ليتقدم الدعاة المهديون الدعوة إلى الإسلام يجيب من يجيب فيهمته، ومن لا يجيب فهو حر في اعتقاده «من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها»^(٣).

فإذا منع الأمير أو الملك تبليغ الرسالة فقد نقض عهده، فينبذ، ويعد ذلك خيانة، وإذا قام بظلم رعيتهم وإرهاقهم، فإنه يحل قتاله وينبذ عهده، ويكون خائناً للعهد، والله تعالى يقول «وإما تخافن من قوم خيانة فأنبذ إليهم على سواء»^(٤).

وقد اتفق العلماء من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم الفقهاء والمحدثون على أنه إذا اشترط المعاهدون من الملوك والحكام أن يترك أمر الرعية لهم، ولو طغوا وبغوا فإن الشرط يكون باطلاً، لقول النبي ﷺ : «كل شرط ليس في كتاب الله تعالى فهو باطل ولو كان مائة

(١) البقرة : ١٩٣ . (٢) البقرة : ٢١٦ .

(٣) الأسراء : ١٥ . (٤) الأنفال : ٥٨ .

شرط»، وشرط السكوت على الظلم باطل بحكم القرآن والسنة، ولقد قال النبي ﷺ: «المسلمون عند شروطهم، إلا شرطاً أحل حراماً أو حرم حلالاً» والظلم حرام، فلا يجوز الاشتراط على أساس حله.

وإذا رضى الذين يحاربون الإسلام العهد بعد عرضه، كان لابد من القتال لمنع ظلم الرعايا أولاً، ومنع الفتنة في الدين ثانياً، ولفتح الطريق إلى دعوة الحق ثالثاً.

ومع ذلك لا يتقدم المؤمنون للقتال قبل أن يبدأهم العدو بالقتال، وإذا بدأ لا يتقاتلون حتى يقتلوا قتيلاً، فإن قتلوا عرض عليهم الإسلام أخيراً، ثم قاتلوا.

ولنترك الكلمة للسرخسي في كتابه المبسوط، فهو يقول :

«عن أبي حنيفة عن علقمة عن عبد الله بن بريدة عن أبيه رضى الله عنهم كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيشاً أو سرية أوصى صاحبهم بتقوى الله تعالى في خاصة نفسه، ثم قال: اغزوا باسم الله، قاتلوا من كفر بالله، ولا تقتلوا وليداً، ولا تغفلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، وإذا لقيتم عدوكم من المشركين، فادعوهم إلى الإسلام، فإن أسلموا فاقبلوا منهم، وكفوا عنهم، وادعوهم إلى التحول من ديارهم إلى ديار المهاجرين، فإن فعلوا، فاقبلوا منهم وكفوا عنهم، وإلا فأخبروهم أنهم كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذي يجرى على المسلمين، وليس لهم في الفئ والغنيمة نصيب، فإن أبوا فادعوهم إلى إعطاء الجزية، وهذا هو العهد.

ونرى من هذا ألا يقاتلهم إلا إذا منعه من الدعوة، وقاتلوه وقتلوا من المسلمين، والنبي ﷺ يقول لعلى إذ أرسله إلى اليمن، ولعاذ بن جبل !

«ولا تقاتلوهم، فإن أبوا فلا تقاتلوهم حتى يبدءوكم، فإن بدءوكم فلا تقاتلوهم، حتى يقتلوا منكم قتيلاً، ثم أروهم ذلك، وقولوا لهم : «هل إلى خير من هذه السبيل فلأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير مما طلعت عليه الشمس وغربت»

ولقد روى عن النبي ﷺ ألا يقاتلهم إذا امتنعوا عن الإسلام والعهد، بل نتركهم، ويقيم القائد الصلاة مع جيشه، ويبيتهم ليفكروا، فإن لم يفعلوا وتعدوا وقاتلوا منا قاتلناهم.

وهذا ما جاء في مبسوط السرخسي إذ قال : «إنهم يوجبون على القائد إذا أبوا الإسلام أو العهد أو القتال ألا يحارب فور ذلك، بل يذهب إلى الصلاة مع جيشه، حتى إذا

أتم الصلاة عاد فجدد الدعوة، وقالوا إنه يحسن ألا يقاتلهم فور الدعوة والسكوت بل يبيتهم (أى يتركهم يبيتون ليلة)، يتفكرون ويتدبرون ما فيه مصلحتهم^(١).

وإنه يستفاد مما ذكرناه أن الجهاد فى الإسلام الدعوة للحرية، لا للإجبار، ولا للإكراه على الإسلام، بل ليفتح الطريق أمام الدعوة للحرية إلى الإيمان.

ويستفاد أيضاً أنه لا يكون القتال إلا بعد أن يعتدى المخالفون بالفعل، ويقتلوا ليتحقق الاعتداء منهم، ويكون القتال من بعد ذلك لرد الاعتداء الذى ابتدأه.

ويستفاد مع ذلك أن يستأنى بهم ليتفكروا ويتدبروا.

وإن الجهاد يفتح الطريق أمام دعوة مشروعة من النبيين والصديقين لأن الحق ليس سلبياً صامتاً، بل هو ناطق مبين، ولابد لبيانه أن يصل إلى الناس بحيث يؤمنون عن بينة، وإن كفر من كفر يكفر عن بينة، حتى يتحقق قوله تعالى، «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا»^(٢) ولا يتحقق مغزى بعث الرسول إلا إذا تم التبليغ بحمله المبينون ابتداءً، وقد حملة النبي ﷺ، وأوصى من بعده بأن يخلفوه فى حملة، وقد بينا ذلك من قبل.

الدعوة فى أعقاب الحرب:

٢٦- الحروب الإسلامية لاتنتهى بإثارة الأحقاد، فلا يقول الجيش المؤمن المنتصر ويل للمغلوب، ولكن يقول رحمة بالمغلوب، ورفقا به، لأنه لا يقاتل الشعوب، إنما يقاتل معسكر السلطان فقط، لأن السلطان هو الذى يحول بين الشعب وبين الدعوة إلى الإسلام، ثم الدخول رغياً لارهباً لمن يريد اعتناقه، واتباع الهدى.

ولأن انتهاء الحرب بفتح باب الدعوة يكون العفو والمعذرة، ويدخل فى الإسلام من أراد، ويبقى على دينه من يريد.

ومن يبقى على دينه يحكم بالعدل والحق لا بالسيوف والظلم، فالظلم حرام أيأ كان المظلوم والعدل مطلوب أيأ كان من ينتفع به، وتكون من بعده المنازلة بدل المعاندة، وفرض بدل الصغار على المغلوبين، إذ بعد الحرب، لا غالب ولا مغلوب، بل مودة وحسن جوار وعدل، والله تعالى يقول: «وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان»^(٣) ولا يجر منكم شئآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى^(٤).

(١) الجزء العاشر ص ٦. (٢) الأسراء: ١٥.

(٣) المائدة: ٢. (٤) المائدة: ٨.

وإن العدل يكون مع الشعب الذى يكون قد رفع نير الذل والاستعباد والطغيان، وأما معسكر السلطان، فإنه يؤسر منه من يؤسر بعد الإثخان فى الأرض، واليأس من أن تكون لهم كرة وعدم توقعها من جيش الإيمان، ويتحقق قوله تعالى: «حتى إذا أنخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها»^(١).

وإنه كان المتبع فى عهد الراشدين أن يرسل الأسارى إلى المدينة حيث مقر الحاكم، وهناك يتصرف أمير المؤمنين مع الأسرى بما يراه مصلحة للمسلمين ولهم، فكان يمين على من يرى المن، ويسترق من يرى استرقاقه معاملة بالمثل لأنهم كانوا يسترقون أسرى المؤمنين فكان حقاً على المؤمنين أن يسترقوهم، وقد أمرنا الله تعالى أن نرد الاعتداء بمثله، فقال تعالى «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله، واعلموا أن الله مع المتقين»^(٢).

ويقول تعالى: «وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين»^(٣).

ولو أنه جرى عرف الحرب، على ألا يسترق إنسان قط فى حرب أو سلم فإنه لا يحل الرق حينئذ، إذ يكون ذلك اعتداء وليس رداً للاعتداء، وينطبق عليه النهى فى قوله تعالى: «وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين»^(٤).

وأولئك الأسرى يعمل المسلمون على ربطهم بالمودة مع المؤمنين يتزوجون نساءهم، ويدخلون عليهن بملك اليمين.

ولقد كان من السبايا نساء من كبار الناس، فى فارس، فلم يتركهم الخلفاء يمتهن بين الأعراب والعرب، بل اختاروهن لكبراء المؤمنين نوى النسب الرفيع كعلی بن أبى طالب وغيره ليرفعوا من خسيستهن، فيكون بذلك المزج الجنسى، ووراءه الائتلاف النفسى والروحى.

ثم من أولئك الأسرى من اتجهوا إلى المعرفة، ليستعيضوا عن انكسار الحرب، بسلطان العقل حتى كان من أولئك علماء الإسلام، وفقهاء فى أحكامه، ومبينون لشرعه.

ولذلك كان من أكثر التابعين الداعون للإسلام، وورثة علم الصحابة من الموالى، وهم أولئك الذين آمنوا وحسن إيمانهم وانصرفوا إلى فقه الإسلام والدعوة إليه.

(١) محمد: ٤ (٢) البقرة: ١٩٤

(٣) النحل: ١٢٦ (٤) البقرة: ١٩٠

عمل الموالى فى الفقه وعلوم الإسلام :

٢٧- منع الموالى فى عصر الراشدين والأمويين من أن يتولوا أمرا من أمور السياسة والحكم، وفيهم قوة ذكاء، وعلوم ومعرفة، فاستعاضوا عن سلطان العلم وهو أقوى أثراً، وأبعد ذكراً.

فكان أكثر علماء العصر الأول من الموالى الذين دعوا إلى الإسلام فاجابوا، أيستوى فيهم من جرى عليه الأسر والرق، ومن لم يجر عليهم، فالجميع قد سموا بالموالى، فكان منهم العلماء والهداة والمرشدون، دعوا أقوامهم فاجابوا، ونقلوا العلم الإسلامى إلى كل من يجله من أهل الأقاليم المختلفة، وكان منهم مع العلم الدعاة.

وأنة فى عصر بنى أمية و العصر العباسى الأول كان العرب متعصبين لعريبتهم ينكرون تفوق الموالى عليهم فى الدعوة إلى الإسلام، وينفسون عليهم علمهم وفقهم.

جاء فى العقد الفريد لابن عبد ربه «قال لى ابن أبى ليلى، قال لى عيسى بن موسى، وكان ديانا شديد العصبية للعرب: من كان فقيه العراق قلت: الحسن بن أبى الحسن قال: ثم من؟ قلت: ابن سيرين. قال: فما هما؟ قلت: موليان. قال: فمن كان فقيه مكة؟ قلت: عطاء بن أبى رباح ومجاهد وسعيد بن جبير، وسليمان بن يسار. قال: فما هؤلاء؟ قلت: موال، قال: فمن فقهاء المدينة؟ قلت: زيد بن أسلم ومحمد بن المنكدر، ونافع بن أبى نجيح. قال: فمن هؤلاء؟ قلت: موال. فتغير لونه ثم قال: فمن أفقه أهل قباء؟ قلت: ربيعة الرأى وابن أبى الزناد. قال: فما هؤلاء؟ قلت: من الموالى، فاريد وجهه، ثم قال: فمن فقيه اليمن؟ قلت: طاووس وابنه وابن منبه، قال فما هؤلاء؟ قلت: من الموالى، فانتفخت أوداجه وانتصب قائما، قال: فمن كان فقيه خراسان؟ قلت: عطاء بن عبد الله الخراسانى. قال: فما كان عطاء هذا، قلت مولى، فازداد وجهه تريداً، واسود اسودادا، حتى خفته. ثم قال: فمن كان فقيه الشام؟ قلت: مكحول، قال: فما كان مكحول هذا؟ قلت: مولى، فتنفس الصعداء، ثم قال: من كان فقيه الكوفة؟ فوالله لولا خوفه لقلت الحكم بن عتبة، وعمار بن أبى سليمان، ولكن رأيت فيه الشر، فقلت: إبراهيم النخعى، والشعبي قال: فما كانا؟ قلت عريبان، فقال: الله أكبر، وسكن جأشه».

هذا كلام نقله صاحب العقد الفريد، وهو يدل على أمور ثلاثة:

أولا - أن الصحابة بعد الفتح الإسلامي لفارس وسوريا ومصر والعراق قد قاموا بالدعوة الإسلامية في البلاد المفتوحة، حتى أسلم أهلها، وكانوا يسمون الموالى في مقابل العرب من المسلمين، وإنهم حسن إسلامهم، وكان دخولهم في الإسلام اختياراً وبرغبة، ولذلك درسوه بعد أن وازنوا بينه، وبين ما كانوا عليه من ضلال، واشتروا الهدى بالضلالة فريحت تجارتهم وكانوا مهتدين.

وثانيها - أنهم كانوا تلاميذ الصحابة وتلقوا علمهم ونشروه وعلموه الناس، فكانوا محل الدعاة إلى الإسلام، وخلفوا أسانذتهم من الصحابة، وأحسنوا القيام بها. وثالثها - أنهم بلغوا في المكانة العلمية قدرا نفسه عليهم العرب أنفسهم.

حسن الجوار وأثره في الدعوة :

٢٨- (أ) - إن أخلاق المسلمين الاجتماعية والأخوية التي تربوا عليها في ظل الإسلام كانت تجلب المحبة لهم، والائتلاف بهم، واتخاذهم قنوة، وإن ذلك يجعل العقيدة تسرى إلى نفوسهم من قلوب محبة ومحبة، فما كانوا يشعرونهم بالقلب، بل كانوا يضعون في نفوسهم أنهم إخوة متحابون، وليسوا غاليين يتحكمون، فكانت هذه الأخلاق مقيمة مدنية، وذلك فوق ما في الحقائق الإسلامية من معانٍ تدركها العقول، وإن البراهين لاتدنى إلى الإيمان وحدها، بل لابد أن يكون معها إلف وائتلاف.

فكان أمام غير المؤمن أو المسلم أمران يجذبان به إلى الإسلام، أولهما تألف النفوس، وثانيهما براهين العقول، فيدخل الإيمان إلى قلبه من غير تردد ولا عوج.

وإن المؤمنين كانوا متمسكين بأوامر النبي ﷺ في الرفق بالناس، فلقد كان النبي ﷺ يقول : تألفوا الناس وارفقوا بهم، وكان يقول : يسروا ولا تعسروا ويشروا ولا تنفروا .

(ب) وإن حسن المعاملة والإحسان إلى الجار، وقد أوجد جواراً بين المسلمين وغير المسلمين سواء أكان أولئك الجيران من العرب، أم ممن دخلوا في الإسلام من غير العرب، فكانت هذه المعاملة مع العلم بأن الإسلام دعا إليها في كتابه الكريم، إذ قرن الإحسان بالجار بالإحسان إلى الأقرين، وقرن الإحسان بعبادة الله وحده لا يشركون به شيئاً، فقال تعالى: «واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً، وبذي القربى، واليتامى والمساكين، والجار ذى القربى، والجار الجنب، والصاحب بالجنب وابن السبيل، وما ملكت أيمانكم، إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً»^(١).

(١) النساء : ٦٣

وإن ذلك بلا ريب يقرب النفوس، ويؤلفها، وإذا تألفت النفوس سهل وصول الحق إليها، ودخل إلى القلوب من أبوابها، وخصوصاً إذا كان العقل يؤدي ما يدعون إليه، فإن المعاملة الحسنة تدنى، والجفوة تبعد، والقول الطيب يهدى، وغيره ينفر، ولقد قال تعالى : «وهدوا إلى الطيب من القول، وهدوا إلى صراط الحميد»^(١) ويأمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين أن يقولوا قولا حسناً، فقال تعالى : «وقولوا للناس حسناً»^(٢).

(ح) وإن القدوة الصالحة تهدي، وتجعل الجميع يهتدون بأهل الخير، وخصوصاً إذا كان ما هم عليه ديناً قوياً يؤيده العقل، ويعليه، فما من أمر جاء في الإسلام إلا كان موافقاً للعقل، جاعلاً للعقل سلطاناً في تفكيرهم، وألا يتخذوا إلههم هواهم، فهو يناقض الأهواء الجامحة، ويدعو إلى اتباع العقل، وقد نهى عن اتباع من غير عقل ولا هدى ولا سلطان مبين، ونهى على المشركين أنهم يقللون من غير تفكير، وأقرأ قوله تعالى : «بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، أولو كان أبائهم لايعللون شيئاً ولا يهتدون»^(٣).

ومع أن الإسلام كان مقنعاً بذاته، داعياً العقول مخاطباً لها - مع هذا يجب أن نفرض فرضاً آخر، وهو أن الإسلام كان قوياً، وكان المسلمون هم الأقوياء والحكام منهم، فلا بد أن يقلدهم المحكومون بهم، وتتحقق نظرية ابن خلدون التي تقرر أن الضعيف مشغوف دائماً بتقليد القوى ويظن أن كل ما فيه من أحوال وصفات من أسباب قوته وسر عزته وعظمته.

وإنه بمقتضى هذه النظرية لذلك الفيلسوف الاجتماعي يفرض أن ناساً من المحكومين ابتغوا الإسلام تقليداً للأقوياء وهم حكام المسلمين، فكانت على هذا قوة المسلمين وسلطانهم من أسباب اتباعهم، ولكنها ليست وحدها السبب، لأن الإسلام لم يدع إلى الخضوع من غير تفكير، بل دعا إلى التفكير، ومن المقررات العلمية أنه لا يصح التقليد في الاعتقاد، لأن الاعتقاد يجب أن يكون إدعائاً، وأن يكون نتيجة تفكير وتدبر واتباع للبرهان فإن الإيمان كما يعرفه العلماء هو العلم الجازم المطابق للواقع عن دليل مع الإذعان والتصديق القلبي، فإذا فرضنا أن ناساً اتبعوا المسلمين مأخوذين بقوتهم، فإنه يجب أن نفرض أن ذلك التقليد جذبهم إلى دراسة الإسلام، ونبذ ما كانوا يعتقدون، وحيث درسوا وجدوا الحق المبين، فآمنوا صادقين في إيمانهم.

(٣) البقرة: ١٧

(٢) البقرة: ٨٢

(١) الحج : ٢٤

ولذا لاتجد أحداً من هؤلاء خرجوا من الإسلام بعد أن دخلوا فيه وذاقوا بشاشته، إلا أن يكون منافقاً، لم يدخل حتى يخرج، ومن هؤلاء الزنادقة الذين ينتمون لأصل فارسي، وأرادوا الكيد للإسلام بادعاء الدخول فيه وهم يريدون إدخال الآراء المشككة المفرقة، ولذلك قرر الفقهاء : أن من يرتد عن دينه يستتاب، فإن تاب قبلت توبته وعمموا ذلك الحكم، ولكن استثنوا الزنادقة، لأن الاستتابة فرصة ينتهزونها ليحققوا ما يرون من إرادتهم التفريق والتشكيك في الإسلام، ونشر الآراء الباطلة، ودس المفاسد بين المسلمين.

وما كان الزنادقة إلا عدداً ضئيلاً جداً، ولا يصلون إلى نسبتهم لجماعة المسلمين بمقدار واحد في كل ألف، بل إنهم دون ذلك بكثير.

وإن استمسك المسلمون من غير العرب بدينهم الذي ارتضوا وهو الإسلام دليل على أنهم اختاروه، وما أجبروا عليه، وما اختاروه لمجرد التفكير واتباع القوي، ولكن اختاروه لأنهم اقتنعوا به، وأدركوا حقايقه، ووازنوا بينه وبين ما كانوا عليه من أوهام انحرقت بها الديانات السماوية عن مواضعها، ورأوا أن كل ما فيه يوافق العقل السليم، ورأوا ما رآه الأعرابي عندما آمن بمحمد، وقد سئل: لم آمن به؟ فقال: «ما رأيت محمداً يقول في أمرٍ أفعل، والعقل يقول: لا تفعل، وما رأيت محمداً يقول في أمرٍ لا تفعل، والعقل يقول أفعل»

وبذلك يتبين أن المسلمين في الأراضى التي فتحها الإسلام ما دخلوا في الإسلام رهباً، وما دخلوا تقليداً للأقوياء، ولكن دخلوا رغباً واقتناعاً وإدراكاً.

العدل ومقامه في الدعوة

٢٨م- الإسلام دين العدالة، وإذا كان لكل دين سمة فسمة الإسلام العدالة، فإذا كانت الكلمات الماثورة عند بعض نوى الأديان تقول: ارحموا أعداءكم، فالإسلام يقول اعدلوا مع أعدائكم، ويقول «ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى»^(١) وقد تلونا هذا النص السامي من قبل، وإنه شعار الإسلام.

بلغ حكيم العرب أكثم بن صيفي أمر محمد ﷺ ودعوته الحق، فأرسل ولده يسألون النبي ﷺ عما يدعو إليه، فتلا عليهم قوله تعالى: «إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون»^(٢) وقد قال العلماء إن هذه الآية أجمع آية لمعاني الإسلام.

(١) المائدة : ٨ (٢) النحل : ٩

لما رجع الولد لأبيه تلوأ عليه الآية، فقال الحكيم العربى: «إن هذا إن لم يكن دينا فهو فى أخلاق الناس أمر حسن» وإن العدل فى ذاته نور يهدى، ولا يشغف الناس إلى اتباع رجل، كما يشغفون إلى اتباع رجل عادل لأنهم يرون استقامة نفسه ولا يرون إلا طيبا فى أمره، ولا يظنون فيه الظنون، فيتبع قوله، ويهتدى بهديه.

ولقد جاء الإسلام نوراً فى ظلمات الجاهلية، كان الأمر فى البلاد التى تحيط بالبلاد العربية أمر الأمراء والملوك الذين يتوارثون الناس، وأموالهم وأنفسهم، كما يتوارث المالك ما كان يملكه أبوه، فهم إن كانوا أحراراً، وليسوا عبيداً فيما يظهر من عامة أمورهم ليسوا مالكين لأنفسهم، إنما يملكها الملك الذى ورثهم، كما يرث الشخص ما كان يملك أبوه.

فإذا قتل الملك إنساناً من رعيته، قدم المقتول هدر، لا دية له.

فإذا جاء الإسلام، وقرر أن الدماء متساوية، وأنها جميعها حرام، ورأى الذى يعيش فى رعية ملك كهرقل وتحكمه فى الشام ومصر، وكسرى فى فارس أنه لاحق له قبل الملك أو الأمير أو الإمبراطور – وجد ديناً يدعو إلى العدل، ويجعل لنفسه حرمة كحرمة دم الملك، فإنه بلا ريب يختار لنفسه، ويختار الإسلام دين البرية.

اقرأ لغير المسلم قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا، وإن تلوأ أو تعرضوا، فإن الله كان بما تعملون خبيراً»^(١)

واقرا لغير المسلم الأعجمى الذى كان يحكمه كسرى أو قيصر قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون»^(٢).

هؤلاء المؤمنون الصادقون وهم فى ديارهم يرون أنفسهم بين أمرين: أحدهما حكم طغيانى فرضه الملوك عليهم بحكم أنهم مورثون لهم كما تورث الأشياء، وبين حكم يجعلهم سواء، ويجعلهم أعزة لا استعلاء لأحد عليهم، والدين الجديد رد إليهم كل حق مسلوب، إنهم عقاء فلا بد أن يختاروا العدل، ويتركوا الظلم ولا يناصروه، وأن يختاروا العزة ويتركوا الذلة، ويختاروا الحرية، ويتركوا العبودية للجبارين والطغاة.

(١) النساء: ١٣٥ (٢) المائدة: ٨

ولم يكن العدل الإسلامى فى أول الفتح كلمات تتلى فى القرآن، أو تردّد على اللسان، بل كان عملاً قائماً، وتنفيذاً شاملاً، فالصديق خليفة رسول الله ﷺ ينادى فى أول توليه: القوى منكم ضعيف حتى أخذ منه الحق والضعيف منكم قوى حتى أخذ الحق له، والفاروق مضرب المثل فى العدل يقول فى سبيل إقامة الحق لأخذن بصمغ القوى حتى أخذ الحق منه، والفاروق يرى أميراً من أمراء الفساسة يضرب فتى من فتيان العرب، فيشدد فى ضرورة القصاص منه، ويقول فى قوة: لقد سوى الإسلام بينهما، فإما أن يعفو المضروب، وإما أن يقتص منك، ولا يرضى بغير ذلك بديلاً.

والفاروق ذاته يضرب رجلاً خطأ فيعطيه الدرة ليضربه أو يعفو عنه.

ولكن الفتى يأبى أن يضرب لمقام إمرة المؤمنين وهيبة للفاروق، ويأبى العفو أيضاً لآلم الضرب، والفاروق يبيت ليلتها مهموماً محزوناً، ويبدو ذلك فى وجهه مغبراً مكفهرًا فى الصباح فيسأله، قائلاً: لعل ذلك من أثر ما كان بالأمس، فيقول الرجل الذى لم يفرّ قرينةً فى الإسلام، نعم، فيقول الشاب: الآن عفوت. أى عدل يصل إلى أعلى من ذلك من بشر؟

ويقول الفاروق لعماله، «ما أرسلتكم لتضربوا أبشار الناس، والله لا أوتى بعامل ضرب رعيته فى غير قصاص إلا أقصصتهم منه، فيقول عمرو بن العاص، أئن ضرب رعيته تأديباً تقتص منه، فيقول الفاروق مشتتاً مؤكداً: والله لأقتصه منه.

يرى غير العرب من المسلمين، ذلك ويرى من لم يدخل الإسلام منهم فيوازنون بين ما كانوا عليه من إهدار دمائهم، وإباحة أموالهم، وأنه لاحق لهم أمام حكامهم، كما أنه لاحق للعبد على مالكة فى زعمهم، ويرون العدل الإسلامى، ويرون مع ذلك أن الأرقاء لهم حقوق على مالكيهم، وأن المالك إذا قتل عبده قتل به، إذ يقول النبی ﷺ: «من قتل عبده قتلناه، ومن جدعه جدعناه» ويقول عليه الصلاة والسلام «من ضرب عبده فكفارته عتقه».

يرون العدل واضحاً قوياً فى القول المأثور عن النبی ﷺ، وفى العمل الذى يرونه، ويعاينونه فى غير التواء، ولا اعوجاج.

بل إنهم يرون الكرامات للرعية موفرة، قال عمرو بن العاص لأحد رعيته: يا منافق، فقال له: والله ما نافقت منذ أسلمت. فشكا إلى عمر، فأعطاه الإمام عمر كتاباً، قال فيه:

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصى ابن العاصى.

لقد ذكر لى فلان أنك نفقت، وما نافع مذ أسلم، فإذا جاءك كتابى فاجلس مع الملا، واجعله يضربك أسواطاً. فجاء الرجل إلى الملا فى المسجد قال لهم: من سمع الأمير نفقتى، قالوا: كلنا سمعنا، فقرأ عليهم الكتاب.

فقال المنافقون حقاً الذين يطوفون حول الحاكم: أو تضرب الأمير؟ فقال الرجل متحدياً: ليس لأمير المؤمنين هنا أمر، فطأطأ عمرو بن العاص رأسه، وأعطاه السوط، وقال له اضرب، فهز الرجل السوط بيده، وقال: الآن عفوت.

انظروا إلى العدالة، وتربية العزة فى النفوس والكرامة، وخير له أن يعزل كل يوم والياً بدل أن يتركهم يهينون الكرامات، ويضربون الأبطال.

العدل مع أهل العهد :

٢٩- قد يقول قائل إن ذلك عدل مع العرب، فهل يعم العدل غير العرب لأنهم الغزاة الفاتحون، ولأنهم يجاملون، كما تجامل الأمم الحاضرة الفاتحين من غزاتها، لأنهم عدتها فى الحرب، وقوتها فى الاستيلاء والسلطان، فلهم فضل عدل خاص بهم، وفضل تكريم.

ونقول فى الجواب عن ذلك القول إن العدل يتمتع به البر والسقيم على سواء، فإنه يتمتع بالعدل الإسلامى، المخالف ولو محارباً، والموافق على سواء، وقد تلونا من قبل الآيات الدالة على ذلك، وهى نصوص صريحة لا تقبل ضرباً من التأويل ولا فساداً فيه تحويل لمعانيها عن مقاصدها، وأفعال الصحابة، ومن تبعهم بإحسان توضح ذلك وتؤكد.

(أ) فقد سبق أن بينا ولى الأمر إذا عقد اتفاقاً مع ملك أو أمير غير مسلم وأجاز له أن يعامل رعيته كما يريد بالعدل أو غير العدل يكون الاتفاق باطلاً، وقد أقمنا الدليل على بطلانه فيما أسلفنا من قول، فلا حاجة لتكراره الآن.

(ب) وإن معاملة الذميين تدل على العدالة الكاملة بين المسلمين وغيرهم، حتى إننا نرى أنهم لا يحرمون من حقوقهم التى كانت لهم من قبل، بل إنهم يأخذون حقوقاً لم تكن لهم من قبل، وإن الإسلام، وهو دين المساواة بين الناس ومنع الطبقات، لا يطفئ أحداً من حق له إلا أن يكون قد أخذ ما ليس له كالأشراف من الرومان، والرؤساء من الفرس، فإن دين المساواة الذى يقرر المساواة العادلة بين الناس يمنع طغيان طبقة على طبقة، والناس جميعاً أمام القانون العام والخاص سواء.

فالإسلام إذا تدخل وأخذ بعض الحقوق التي يزعمها من كانوا يتحكمون في الناس، فلأنها ليست حقوقاً، ولكن هي اعتداء، والإسلام العادل يمنع الاعتداء في كل صوره وأشكاله.

(ح) والقاعدة المقررة في الإسلام التي استنبطها الفقهاء من أقوال الرسول ﷺ ونصوص القرآن - هي: لهم مالنا وعليهم ما علينا، لا يضارون في دينهم، ولا تحكم أسرهم بغير دينهم الذي ارتضوا، وآثروا البقاء عليه، لأن الإسلام لا يكره أحداً على الدخول في دين لا يريدون الدخول فيه، فإله تعالى، يقول: «لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي»^(١). ولنشر بكلمات موجزات إلى أحكام الذمى، ومنها نرى أنها عادلة لا يفرض الإسلام عليهم أمراً في أسرهم أو اعتقادهم.

الذمى

٣٠- الذمى هو الذى يقيم مع المسلمين على أن يكون له ما لهم وعليه ما عليهم، وهو يقيم مع المسلمين بعقد يقال له عقد الذمة، وهو يعقد مع الفتح الأول لأى إقليم يفتح، يتولاه أمير الحرب يوجب على الدولة واجبات، يتولى ولى الأمر أداؤها ويفرض حقوقاً للذمى يجب على الدولة رعاية تنفيذها.

وقد كان يحدث أن ولى الأمر يعقد عقداً عاماً بأن يعلن أن من يرضون بالإقامة بين المسلمين لهم مالهم، وعليهم ما عليهم، بحيث يلتزمون ما يلزم المسلم مما يجب عليه، فيلزم بالمعاملات الشرعية، ويحرم من المعاملات ما حرم الإسلام، وتقام عليه الحدود ويقتص منه إلى آخر الأحكام الشرعية.

وفى نظير هذه المعاملة الحرة العادلة، عليه أن يلتزم باحترام المسلمين، واحترام ما يقدسه المسلمون، فلا يجترح حرمة المساجد، ولا يسب النبى ﷺ، ولا يسب أحداً من أصحابه ولا يطعن فى الأحكام الإسلامية، ولا يحاول أن يعتدى على مسلم أو عقيدته.

فإنه إن فعل ذلك نقض عقد ذمته، وصار حربياً يباح دمه، وما بقى على ذمته فهو مصون الحرية، والكرامة، وتجربى عليه الأحكام بالعدل والإنصاف، وقد بيناً مراعاة الأئمة الراشدين لذلك مراعاة تامة، وروينا قول النبى ﷺ: «من أذى ذمياً، فأنا خصمه يوم القيامة، ومن خاصمته خصمته».

(١) البقرة: ٢٥٦

والذميون خالطوا المسلمين، وعاشروهم، وكان الود موصولاً معهم إلا من خرج عن العهد ونبذ الذمة، والله من ورائهم محيط.

الدعوة الإسلامية في العصر الجباسي

(١) الدعوة بالأحاد:

٢١- إن الدعوة الإسلامية كانت تسير على المنهاج المستقيم في عصر الصحابة وعصر التابعين، وكان مع الجيوش الإسلامية كتاب الله تعالى، والعدل، والخلق الإسلامي، فكان الفتح، وكانت الدعوة الإسلامية القوية، وكان دخول الناس في الإسلام أفواجاً، وكان الناس يؤمنون بالله رغباً لارهباً، بلا إغراء ولا استهواء، كما يفعل بعض النصارى في مصر في هذا الزمان، فقد استخدموا في الماضي الإكراه بكل أساليب التعذيب والتنقيب عن القلوب والآن يتخذون الاستهواء النفسى بما يسمونه غسل المخ، وهو إكراه، بل أشد من الإكراه، وإذا كان المكروه كالألة في يد من أكرهه، ولا تكون نتيجته إيماناً، فمن أكرهه وقلبه مطمئن بالإيمان لم يتغير اعتقاده ولم يتغير قلبه، فإن الاستهواء ومسح المخ يجعله آلة طيعة في يد من استهواه، وغسل مخه، يغير نفسه وكيانه، فيؤمن بالباطل، وهو لا يعرف أنه باطل. وإنه كان للدعوة الإسلامية التي كانت تتجه إلى القلوب من غير استهواء ولا غسل للأفكار، بل كانت بالبرهان والموازنة بين الحق والباطل، بين ما فيه صلاح الناس، وما فيه فسادهم، وبين قضية العقل المدرك، والنفس المؤمنة، وبين الأوهام، وتكشف للحقائق وسترها. قام آحاد المسلمين بهذا البيان، وذلك بالاختلاط بين المؤمنين وغيرهم من النصارى والمجوس والصابئين، والمشركين، وغيرهم، والقرآن إمام المسلمين، وهو النور الهادي، والحق المبين.

وإذا كانت الجيوش الإسلامية، تفتح الحصون، وتزيل محاجزات الملوك فإن وجه الشعوب يخلو للدعاة للإسلام من المؤمنين، وإذا كان الحكام لا يعنون بالدعوة، ولا يراعونها حق رعايتها، فإن المؤمنين من العرب وغيرهم كانوا يعنون بها أحاداً وجماعات كما سنبين، ولكن الأحاد كانوا أبعد أثراً ابتداءً، فهم بتخليقهم بأخلاق القرآن، وباتتلافهم مع الناس من غير استعلاء، بل يعاملونهم كإخوان لهم ينشرون الإسلام بالقول والعمل، حتى كانت الفرس وخراسان وما وراءهم من بلاد وراء النهر والديلم من المسلمين بدعوتهم.

وكثرة كبيرة من الهند، كانت مسلمة بالدعاية الأحادية والجماعية، وإذا تركنا الشرق إلى العرب وجدنا دعوة الأحاد وراء الجيوش الإسلامية تدعو، وتبشر الناس بالرسالة المحمدية.

وذلك بطرق ثلاثة :

أولها - الاختلاط والانتلاف، فالأليف يقرب أليفه ويدنيه.

ثانيها - التبیین، وذلك من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع تأليف القلوب والموعظة الحسنة، كما قال تعالى: «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن»^(١).

ثالثها - إزالة الأوهام التي تسيطر على الناس فيما يتعلق بالأوثان، وقد كان الوثنيون ولايزالون أسرع استجابة، وأسهل اقتناعاً من غيرهم؛ لأن عقولهم على الفطرة والفطرة السليمة أقرب إلى الاستجابة إلى الحق، والإيمان به.

ولذلك نجد الكثرة الكثيرة من الأفريقيين مسلمين مع الدعاية النصرانية الملحة التي تستحل كل شيء، إلا ما يكون حقاً منيراً، وتتذرع بكل الذرائع من طب، وإعانة على الزراعة، وتستعين بطرق غير محللة خلقاً وديناً كالخمر والاستهواء، والإسلام وحده يسير من غير ذرائع، ولامجالات، وذلك أنه لا أوهام فيه، إنه يدعو إلى الله وحده، فالقلوب والعقول تصل إليه.

ب- التجارة والدعوة الأحادية.

٣٢- كان التجار المؤمنون في اليمن وحضرموت، يسيرون بمتاجرهم متبعين من شطر البلاد العربية ميممين شرقى البلاد ومغاربها ومع تجارتهم الدعوة المحمدية.

يعطون بضائع المال، ويأخذون مثلها، ومعها بضائع هي النور وهو الإسلام، وقد جابوا الأفاق على البضاعة المادية والهدى المحمدي.

وكان يسهل الطريق أن الوثنية كانت مهيمنة على الشعوب التي يعاملونها فيهدونها، ثم يتعاملون معها بنور الهداية.

فكانت بضاعة النور رائجة، وبضاعة المادة رائجة أيضاً.

(١) النحل : ١٢٥

وبالتجار الحضارمة آمن أكثر شرق أفريقيا، ولا تزال آثارهم باقية في شرق أفريقيا، فعلى أيديهم أسلمت الحبشة إلا قليلا، وإن كان المسلمون فيها مضطهدين تحت عين المسلمين وبصرهم.

وكذلك الصومال، وسائر شرق أفريقيا، والتجار المسلمون هم الذين نشروا الإسلام في أنغوليسيا، وغيرها من بلاد الشرق الأقصى.

والصين ابتداءً فيها الإسلام بفتح قتيبة بن مسلم لما حولها، وجاء إليها من أنغوليسيا وغيرها.

٣٣- والرحالة المسلمون كابن جبير، وابن بطوطة وغيرهما من الذين كانوا يرحلون طلباً للحديث من المحدثين عن النبي ﷺ ابتداءً، ثم صارت الرحلة هدفاً مقصوداً يقصدون إليه، يتعرفون فيه أحوال المسلمين، ويبينون الإسلام بين غير المسلمين.

وكان منهم من يعقد دروساً علمية يحضرها المسلمون وغير المسلمين، وفيها بيان الحقائق الإسلامية، والأخلاق الدينية.

وكان للصوفية أثر كبير في هذه الدروس حتى قيل إن مجلس الدرس لسيدى عبد القادر الجيلاني كان يحضره ألاف من الناس، وفي بعض مجالسه كان يحضره نحو أربعة ألاف، وقد أسلم كثيرون من مجالس عبد القادر الجيلاني كما سنتكلم عن ذلك عند الكلام على المتصوفة وأثرهم في الدعوة إلى الإسلام.

والقول الجلي أن الدعوة الأحادية كان لها فضل كبير في نشر الإسلام والدعوة إلى الإسلام.

وفي الحق إن الإسلام انتشر بالدعوة الأحادية، من الذين أخذوا بداعي الوجوب العيني، وقد قلنا أن الدعوة إلى الإسلام، فرض عين، وفرض كفاية تقوم به الجماعة في ظل الدولة، وتحت رعايتها وتوجيهها.

ولكن من وقت أن ضعفت الخلافة الإسلامية ثم ذهبت ولم تقم الدولة بالفروض الكفائية الخاصة، فلم يعين الخليفة قوماً للدعاية للإسلام، يوجههم، ويزودهم بالمال والعلم، ولم يقم أحد بالفرض الكفائي، وذلك لثلاثة أسباب.

أولها - أنه لم تكن دولة إسلامية جامعة تحمل نفسها تبعات إسلامية، إنما كانت تعلن إسلامها من غير أن يكون لها عمل للإسلام، وإن كان منهم من يشجع بعض العلماء للتأليف،

والبحث والدراسة، فلم يكن منهم فيما نعلم من يؤلف جماعة للدعوة إلى الإسلام ويزودها بالمال في سبيل هذه الدعوة، ويضع لها المناهج التي تسير عليها.

ثانيها- أنهم كانوا في نزاع مستمر للغلب، وأن يكون لكل سلطان حوزة من الأرض أكثر من حوزة الآخرين، وكانت الحرب بينهم مستمرة وحب الغلب هو المسيطر على تفكيرهم، وبذلك كان بأسهم بينهم شديداً.

ثالثها- أن الغارات الصليبية قد شغلتهم كثيرا ثم جاءت بعدها الغارات التترية، واستمرت هذه الغارات عدة قرون وما نجت منها إلا وقد خرجت منهوكة ممزقة، فلم تكن هناك دعوة منظمة يحميها الأفراد ويمدونها بالعون وبالمال والرجال.

لهذه الأمور ما كانت هناك دعوات منظمة تشرف عليها الدولة، لأنه لم تكن دولة قوية، أو دعوة تشرف عليها الإمارات المختلفة لأنها شغلت بنفسها عن دينها ونسيت أنها دول قامت على الإسلام، فله عليها حق الرعاية وإقامته على وجهه.

والعلماء نسوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعكفوا على دراسة فلسفة الإسلام، ووجوبه من غير أن ينفذوه.

ولكن الآحاد كانوا يقومون بذلك طالين ما عند الله، حتى ابتأست النفوس وقنعت بحكم الحاكمين وظلم الظالمين، فنسيت ما يجب عليها لكي تستمر الدعوة إلى الإسلام موصولة غير مقطوعة إلا من عصم الله.

غير العرب في الدعوة إلى الإسلام :

٣٤- وأنه إذا كانت أحداث الصليبيين والتتار أثرت في العرب من ناحية الدعوة الإسلامية، فإنه إذا كان قد أقل نجم الإسلام بينهم في الدعوة إلى الإسلام، فقد بزغت له نجوم أخرى في غير العرب، في البلاد الإسلامية الأخرى.

وإنه قد ينجم من الشر خير، فإن الشر المحض لا وجود له في الدنيا، كما أن الخير المحض نادر الوجود أيضا، فقد نجم عن غارات التتار والصليبيين أمران جليلان لهما شأن في الإسلام، ورفع مكانته :

أولهما- أن الإسلام انتشر بين التتار، فقد كانوا وثنيين، فلما اختلطوا بالمسلمين بالفتوح ورأوا ما عليه المسلمون من رقى في الفكر والاعتقاد اعتنقوا الإسلام، وكان منهم

مسلمون وإن كانوا لم يتركوا الحرب والنضال والفساد في الأرض ولكن دخلوا في الإسلام، وكان منهم مسلمون، وإن كان بعضهم كالأعراب الذين أسلموا، ولم يدخل الإيمان في قلوبهم، واختلطوا، ثم صار فيهم إيمان من بعد.

الأمر الثاني - أن الصليبيين تأثروا طريق المسلمين، ونفذ إلى نفوسهم وعقولهم وإن لم يؤمنوا به، ولكنهم تأثروا طريقه، ولذلك كان فيهم بعد ذلك ما يسمى الإصلاح الديني، وقد قبس من الإسلام كثيراً، وكتاب مارتين لوثر زعيم هذا الإصلاح من يراجعه يجد كثيراً من تعاليم الإسلام، وخصوصاً ما يتعلق بالعقود والمعاملات (راجع كتاب الإسلام وأباطيل خصومه للمرحوم عباس محمود العقاد).

وإنه إذا كانت الدعوات الإسلامية في الحروب الصليبية والتترية قد ضعفت بين العرب، فقد ظهرت في الهند، والبلاد الشرقية؛ ظهرت في باكستان وأندونيسيا بعد أن أمنت وظهرت فيها دعوات للإسلام قوية مستمرة، كان يقوم بها مسلمون من الهند يخرجون للدعوة الإسلامية يحملون زادهم على ظهورهم، ويتحملون المشاق الشداد في الدعوة إلى الإسلام، حتى ظهر المسلمون في فلبن، وجزر الهند الشرقية وغيرها، وعلى أيديهم أسلم كثيرون من الزنوج الأمريكان، وفشا الإسلام.

وقد وجدنا جماعات في الهند وباكستان نفرت للدعوة إلى الإسلام، وكانوا يخصصون من جهودهم وأموالهم للدعوة إلى الإسلام عشرين، فاعاملون في الدولة يقتطعون من أوقات خدماتهم عشرين، وكأنها مقادير زكاتهم بزيادة عن مقادير الزكاة.

ويذهب المؤمن منفرداً يقوم بدعاية الإسلام في كل أرض مر بها معتمداً على الله لاينى ولايكف، ولقد حضرنا بعض اجتماعات هذه الجماعة في لاهور سنة ١٩٥٨.

ولقد أسلم الكثيرون من الناس والأقوام على أيدي هؤلاء، وكان الدعاة يقومون بهذا فرادى، والجماعة هي التي توزع الأحاد، وكل وطاقتهم، وكل وعمله منفرداً.

ولاتزال هذه الجماعات قائمة منبئة في الهند وباكستان، وأندونيسيا، وهم الذين يقومون بأمر الله تعالى ونهيه، ولاينفكون عن الدعوة إليه، وبهذا يتبين أنه إذا كانت الدول التي تسمى

نفسها دولا إسلامية قد قصرت في حماية دينها أولا، وحماية المسلمين ثانياً، والقيام بحق التبليغ ثالثاً فإن المسلمين أحاداً، وأحياناً بجماعات تنظم وتوجه - كما رأينا في باكستان - قد قاموا بحق التبليغ في الجملة، وإن لم يبلغوا الغاية الكاملة، ولكنهم قاربوا بعد أن سدوا، ولهم فضل على القاعدين الذين لم يقوموا بشئ، وخصوصاً أولئك الذين يلبسون لباس العلم الإسلامي، ويظنون أنهم في الذروة، فهم لا يحسون بالواجب عليهم، ومعهم من يقولون إن الإسلام علم فعليهم أن يطلبوه هم، وإن كان العلم شأنها، فعلى الذين وكل إليهم شأنها أن يصححوا هم، وليس على القاعدين ممن درسوا العلم أن يصححوا.

الفرق والطوائف

٣٥- قلنا إنه منذ أشرق الإسلام، وأضاءت الأرض بنوره، والتبليغ به قائم، والدعوة مستمرة، وكانت سهلة، لأن أخلاق المسلمين كانت تدعو، وعدالتهم كانت تعم، فيعشوا إلى ضوئها الناس، والخلفاء حريصون على أن يكون الإسلام هو المقصد الأول، حتى كثر الدخول فيه، وحتى خشى بعض الذين يدبرون المال، على بيت الخراج والجزية أن يخلوا، فمنهم من فكر في ألا يرفع الجزية عمن يسلم، فغضب عمر بن عبد العزيز، وقال: «إن الله بعث محمداً هادياً، ولم يبعثه جابياً» ثم نما الإسلام وانتشر بالتبليغ المنظم الهادئ.

وإن بعض الفرق الإسلامية عندما نشأت الفرق، وتحقق خبر النبي ﷺ : بأنه تتفرق أمته على ثلاث وسبعين فرقة - كانت تضع من مبادئها الدعوة الإسلامية، وأدخلته في باب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وهؤلاء هم الذين سموا في تاريخ الفكر الإسلامي المعتزلة.

المعتزلة والدعوة الإسلامية.

٣٦- كان من مبادئ المعتزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد كانت مبادئهم خمسة : التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، وأن مرتكب الكبيرة في منزلة بين الإيمان والكفر، ويصح أن يطلق عليه اسم المسلم، والمبدأ الخامس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد قرروا وجوبهما، والأخذ في تنفيذه أمر الله فيهما، ومن قصر فقد ارتكب إثماً، فعلى المؤمنين

نشر الدعوة الإسلامية، والقيام بتبليغ الرسالة، وهداية الضالين وإرشاد الغاوين، وكل بما يستطيع، فنو البيان ببيانه، ونو القلم بقلمه، ونو السيف بسيفه؛ لكي يمنع الفتنة في الدين، ولكي يزيل المحاجزات التي تحول بين الداعي والمدعوي، وتمكين التبليغ، والناس بعد أن يتبين الرشد من الغي، بين أن يتبعوا أو يمتنعوا، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، وما ربك بظلام للعباد، ولا إكراه في الدين.

وقد كان عمل المعتزلة في الدعوة الإسلامية في ناحيتين :

أولاهما- الدعوة إلى الإسلام، وخصوصاً بين علماء الفرس وغيرهم من غير المسلمين، فإنهم كانوا يتخونون المنطق والعقل سبيلاً لتفكيرهم وجدلهم فكانوا يدعونهم إلى الإسلام، ويحلون المشاكل التي تثار، وقد تولى ذلك كبيرهم، فالحسن البصري، وقد كان ينهج نهجهم، وعنده منهم، في الطبقة الثانية.

وكان واصل بن عطاء وهو تلميذ الحسن ينشر الدعوة بلسانه وقلمه، فله كتاب ألف مسألة وكانت دعوته للعلماء.

والناحية الثانية - الرد على أهل الأهواء من الزنادقة وغيرهم الذين كانوا يشككون في الحقائق الإسلامية، وكانوا أحياناً يدسون ما يثير الريب، ولا يظهرون، وأحياناً ينكشف أمرهم ويظهر وإن أراؤا إخفاءه، فيكشف ثوبهم عن حالهم، ويظهر أمرهم.

والمعتزلة يتتبعون الآخرين، فهم يجادلون من ينكشف أمره حتى يرجع أو يسكت، ويتتبعون ما يظهر من الآراء الفاسدة، وإن لم يعرف صاحبه.

وقد كان من بعض الرافضة آراء تؤدي إلى الانحراف، وتمكن غير المسلمين من الهجوم على الحقائق الثابتة، فكان المعتزلة يترصدونهم، ويردونهم ويمنعون آراءهم من أن تصل الناس.

وقد فرق واصل تلاميذه في الأفاق كما قام زميله عمرو بن عبيد بذلك، وكان أطول عمراً، ولقد اشتد أمر الزندقة والزنادقة في عصر أبي جعفر المنصور، وابنه المهدي، وكانت الفلسفة اليونانية والهندية وغيرهما قد ترجمت، ودرست وجاءت محملة بالعلم وبأوزارها، فجاء السوفسطائية، ونشرت فلسفة الشك وحمل المعتزلة عبء مناهضة هذه الآراء الهدامة لكل حق، ولكل دين.

وأخذ الزنادقة ينشرونها، ويروجونها، وتفاقم أمرهم في عهد المهدي، وقام رجل هو المقنع الخراساني يهاجم المسلمين في الميدان، والزنادقة ييئون في الشعب روح شك، ويهدمون العقائد هداماً.

وقد تجرد المهدي لمقاومة الأمرين فقاتل المقنع الخراساني حتى هزمه في ميدان القتال.

وفي الميدان الفكري جرد المعتزلة لمقاومة الزندقة حتى هزمها هي الأخرى بمجادلات المعتزلة، ودعوتهم إلى الإسلام والدفاع عنه.

وجاء الرشيد بن المهدي، وقد انطفأت إلى حد فتنه الزندقة والزنادقة، وإن كانت الجرثومة لم تجث، فأطفئ اللهب، ولكن مازالت النار مدفونة بالخوف.

وكان يميل إلى الأثر والحديث، ولذا أبعد المعتزلة عن القرب إليه، وسجن منهم من سجن، ولكن النار المدفونة ابتدأت تظهر، والزندقة التي لم تجث ابتدأت تنبأ رءوسها كراءوس الشياطين فاحتاج إلى من يدفعها، فدعا الفقهاء والمحدثين، ولم يكونوا أهل ذلك الميدان، فبحث عن يقف فيه، وقيل له هم المعتزلة، فجردهم، وعانوا يحاربونهم، كما ابتدءوا.

هذا موقف المعتزلة من الدعوة الإسلامية، وهو موقف مبني على ما عندهم من وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويدخل في عمومه الدعوة إلى الإسلام، ورد شبه الذين تزيع قلوبهم أو يريدون بث الزيغ في المؤمنين.

ونحن إذ نذكر المعتزلة في هذا المقام بالتقدير لانواقفهم في كل ما يعتقدون، بل نواقفهم فيما هو حسن في ذاته لا يقبل جدلاً، ومخالفه يعد مخالفاً لأمر عرف من الدين بالضرورة.

الزيدية والدعوة الإسلامية

٣٧- الزيدية فرقة من فرق الشيعة، ولكنها معتدلة ترى أن الإمامة تكون من أولاد على كرم الله تعالى وجهه، سواء أكانوا من ذرية الحسن أم كانوا من ذرية الحسين، ويرون الإمام بعد النبي ﷺ هو على، وهو معرف بالوصف، وليس معيناً بالاسم، وأنه تكون للأفضل من

ذريته من فاطمة بشرط أن يخرج داعياً لنفسه، ويجيزون إمامة المفضل، ولذلك أجازوا إمامة الشيخين أبي بكر وعمر، وإن كان على أفضل في نظرهم.

وهم أتباع الإمام زيد بن علي زين العابدين الذي خرج على طغيان هشام بن عبد الملك، وقتل رضى الله عنه سنة ١٢٢ هجرية بالكوفة بعد أن خذله أهل العراق، كما خذلوا جده الحسين، وقتله الأمويون، وقد قتل بالنبل، كما قتل جده الشهيد ابن الشهيد وأبو الشهداء الحسين رضى الله عنه، ولعن من قتله، ومن كان سبباً في قتله.

وقد كان أكثر من خرج على العباسيين من بعد الأمويين من الزيديين.

ولذا كان الظاهرون من البيت الزيدى يتتبعهم العباسيون، ويفر هؤلاء من وجوههم، وكانوا يفرون إلى خراسان والديلم وبلاد الجبل.

وكان ممن يقتفى آثارهم، ويتبع أمرهم الناصر الكبير من ذرية الإمام زيد، وقد عاش في القرن الثالث، وتوفي في مطلع القرن الرابع سنة ٣٠٤.

قد هاجر الناصر هذا إلى بلاد الديلم والجبل، كما أشرنا وكان أهلها وثنيين، وقد فر بدينه إليهم.

فأخذ يدعوهم إلى الإسلام، ويعلمهم شرائعه وأحكامه، فكان يبشر ويدعو، وأبلى في ذلك بلاء حسناً، حتى أسلم أكثر الوثنيين بدعايته، وبحكمته في الدعوة، وحتى دخلوا جميعاً في الإسلام، وتولى هو الإمرة عليهم، وكان إماماً في هذه البقعة، وقالوا إنه كان يحيى الإمامة الزيدية من الركود بعد توالى الاضطهاد واستشهاد الكثيرين من آل البيت الزيديين.

ولقد قال في ذلك الشهرستانى في كتابه الملل والنحل: «لم ينتظم أمر الزيدية حتى ظهر بخراسان ناصر الأطروش، فطلب مكانه ليقتل، فاختفى واعتزل إلى بلاد الديلم والجبل، وهم لم يتحلوا بدين الإسلام، فدعا الناس إلى الإسلام على مذهب زيد بن علي، فدأوا له بذلك وبقيت الزيدية في تلك البلاد ظاهرين، وكان يخرج واحد بعد واحد من الأئمة، ويلون أمرهم، (انظر الملل والنحل للشهرستانى ج ١ ص ٢١١).

وإن هذا يفيد أن الزيدية بسبب اضطهاد العباسيين لأنمتهم، وفرارهم من هذا الاضطهاد، قد اتجهوا إلى الدعوة إلى الإسلام أولاً، ثم بالمذهب الزيدى ثانياً، فثمر ذلك

الاضطهاد تلك الثمرة، وعاد الزيديون بخير ما فعلوا، وعاد المضطهدون بإثم ما فعلوا، وتلك قسمة عادلة.

لقد أسلم على أيدي الناصر، ومن جاء بعده ملايين من الناس الذين كونوا إقليماً إسلامياً كثير السكان، كثير العلماء، مخلصاً أشد الإخلاص تابعاً لمن دعاه وهده.

ولا يهولك أن الزيدية كانت المذهب المسيطر، فإن المذهب الزيدي أقرب المذاهب إلى مذاهب الجماعة.

وهو يأخذ بالسنة كلها، يأخذ بما في الصحيحين، وغيرهما من كتب السنة ويأخذ بآراء كثيرة من المذاهب الأربعة.

ومن المقرر في هذا المذهب الزيدي أن مالم يرو فيه شيء عن الإمام زيد يؤخذ فيه برأى الإمام أبي حنيفة، ولذا كانت فيه آراء كثيرة مقتبسة من المذهب الحنفي ثم المذهب الشافعي.

ومهما يكن من الأمر في المذهب الزيدي، فإن أئمة الزيدي عندما اضطهدوا لم يقضوا أوقاتهم في خمول المنفيين المضطهدين، ولكن قضوه في عمل المتقين المهديين فانصرفوا إلى الدعوة إلى الإسلام في تلك الأراضى الوثنية، وجاء نشر مذهبهم، وليس منحرفاً، ولا خارجاً على الإسلام، تبعاً لذلك.

ويكفي هداية وتوفيقاً أن أسلم على أيديهم عشرات ألوف الألوف من المسلمين، والمذهبية أخذت تذهب شيئاً فشيئاً حتى صاروا الآن في ضمن الحنفية، وقد علمت أن المذهب الحنفي كان مرضياً في المذهب الزيدي، ثم غلب، فصاروا أحنافاً.

الصفوفية

٣٨- التصوف أصله من الزهادة، والانصراف للعبادة من غير أن ينقطع عن أسباب الحياة وطلب الرزق، وقد دخل الإسلام من عدة مسالك.

أولها - وجود الزهادة والزهد في الحياة ومتعتها، مكتفياً بالحلال منها، وذلك أعلى الزهد، فقد قال الإمام أحمد رضى الله عنه مجيباً من سألته عن الزهد فقال هو طلب الحلال،

والاقتصار عليه، ومن الزاهدين من اتجهوا إلى الحرمان وفهموا أن قطع النفوس عن الملاذ حلال، وحرمانه هو فطم للنفس وهو الزهد، ولكنه الذى نهى النبى والقرآن عنه فقد قال تعالى : «يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم»^(١).

وثانيها- فلسفة هندية تقوم على رياضة النفس على التحمل، والانقطاع عن الملاذ.

وثالثها- ما كان يظهر من بعض الديانات من الحرمان، وسرى إلى المسلمين من بقايا الديانات القديمة، ومع أن الإسلام نهى عن الرهبانية لأنها من ابتداع النصارى كما قال تعالى « وقفينا بعيسى ابن مريم وأتيناه الإنجيل، وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها، ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله، فما رعوها حق رعايتها فاتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون»^(٢).

وقد سرت بعض مبادئ الرهبانية إليهم، بمقتضى الاختلاط، ولبقايا الديانات القديمة فى نفوسهم، ولقد قيل إن الصوفية كانت تقليداً أو اتباعاً لأهل الصفة الذين كانوا يعيشون فى مسجد رسول الله ﷺ فى عهد الصحابة، لا مأوى لهم غيره، ولا ملجأ لهم سواه.

ومهما يكن مصدر الصوفية، وسبب شيوعها بين المسلمين، فإننا نجد فيها نوعاً من التشبه بالرهبة، وإن لم تكن مماثلة لها من كل الوجوه، فإن أهل التصوف يتزوجون ولا ينقطعون عن الدنيا انقطاع الراهبين، ولا يموتون موتاً حكماً، كما يعبر القانونيون، إذ يعنون الرهبة موتاً حكماً.

ولاشك أن الذين يعكفون فى الخانقاه، ويقيمون فيها يشبهون الرهبان فى الأديرة، وإن كان من سكان الخانقاه من يتزوجون، وينجبون الأولاد.

وفى الحق أن الصوفية لها جانبان : جانب الخير، وهو الاتجاه إلى الله تعالى والاستجابة له، وأن يكون قلب المؤمن عامراً بالإيمان، ذاكر الله تعالى دائماً، مشرقاً بنوره يطلب من الدنيا ما يقوى به على عبادة الله تعالى، وطلب ما عنده فى الآخرة، فلا ينصرفون عن الدنيا ولكن يطلبونها على أن خيرها مطية الآخرة، وطريقها.

والجانب الثانى وهو ظاهر فى بعض المتصوفة وهو الانقطاع عن الدنيا وذلك وجه لا يريده الإسلام، ويظهر ذلك فى الانصراف إلى الذكر الذى يكون معه حركات.

(١) المائدة: ٨٧ (٢) الحديد : ٢٧

ومهما يكن نوع التصوف، وغايته ونهايته فإنه وجدت جماعات صوفية يرأس كل جماعة شيخ من شيوخ العلم والتصوف، والجهاد في سبيل الله، فتعددت الطرق الصوفية، وكل واحدة تتبع شيخاً جديراً بالاعتداء، وله في الإسلام والدعوة إليه فضل وذكر، فالشيخ عبد القادر الجيلاني له علم غزير، وإرشاد وتوجيه وحكمة، وإبراهيم الدسوقي له علم مدون، وتوجيهات شديدة في التقوى والزهادة، وأحمد البدوي له بعض جهاد في الحروب الصليبية، وله توجيهات محددة، والسيد أحمد الرفاعي من أهل العلم والتوجيه والإرشاد.

وأحمد التيجاني له فضل كبير والسيد محمد بن علي السنوسي له فضل علمي وعملی وتوجيهي في الإسلام، ودعوته إلى الإسلام هو والتيجاني نشرت الإسلام في غرب إفريقيا ووسطها وجنوبها مع ما كان للجيلانية من أثر.

وإذا كان إسلام شرق إفريقيا على يد الحضارمة والتجار، فإنه في وسط إفريقيا وغربها للجيلانية والتيجانية والسنوسية فضل عظيم في نشر الإسلام، ولنذكر ذلك بفضل من القول، ونشير في إيجاز.

الشعبذة والتصوف

٣٩- لانريد بالتصوف الذي شاع في عصر المماليك في مصر والشام والذي كان أهم مظاهره الشعبذة، والصياح والتمايل بما يسمونه الذكر في المجالس، والخروج بالموكب والأعلام في الطرق، واللعب بالثعابين، وابتلاع النيران، وغير ذلك مما كانت تظهر به فرق مختلفة وطوائف تسير في الطرقات وتضع النار على أجسامها لتتطفئ، زاعمين أن النار لم تحرقهم، وقد طلوا أجسامهم بما يمنع حرقها، وقد ادعوا أنهم ينتسبون إلى السيد أحمد الرفاعي، ولنترك القلم لابن تيمية يصف حالهم، وإن كنا لا نوافق على نظرتهم إلى التصوف عامة، فقد قال رضى الله تبارك وتعالى عنه لهم عندما أرادوا أن يصنعوا أمامه وفي حضرة نائب السلطان ما يصنعون أمام التتار، وقد كانوا جاثمين في ربوع الشام، وهم يقاومونهم قال : من أراد أن يدخل في النار، فليدخل أولا الحمام، وليغسل جسده غسلاً جيداً، ويدلكه بالخل والأشنان ثم يدخل بعد ذلك إلى النار إن كان صادقاً، فقال شيخهم: نحن إنما تنفق أحوالنا عند التتار، فإنكشفت بذلك حالهم، وهو مما لا تهم التتار فاشتد النكير عليهم لفعالهم،

ومما لآلهم للتتار أعداء الوطن الشامي، بل أعداء الأوطان العربية والإسلامية قاطبة، إذ لم يكونوا قد دخلوا في الإسلام، وإن أمثال هؤلاء المشعوذين لانزال نطلع على ناس منهم ينتسبون إلى السيد أحمد الرفاعي وهو منهم براء.

ولكننا إذا قلنا أن الصوفية لهم أثر في الدعوة إلى الإسلام لانقصد هؤلاء ولا أشباههم، وإنما نقصد الذين اتخنوا العبادة شعاراً للتصوف، ولم يتخذوها للشعبذة، واستدرا أموال الناس، أو العبث بالعوام، وحشو الأمة.

التصوف

٤٠- قبل أن نخوض في الدعوات الصوفية للإسلام، نذكر بإيجاز حقيقته ليتبين ما فيه فائدة للدين، وما هو خارج عليه، ليمكننا أن ننتفع بالصالح، كما نفع من قبل، ونترحض الأوساخ الذي علقت به وشوهت اسمه عند كثيرين من الغيورين على الإسلام، وقد أشرنا في ماضى قولنا إشارة مجملة تكاد تكون مبهمة إلى مداخل الصوفية في المجتمع، ولكن لابد أن نبين بإيجاز بعض ما أجملنا، ونكشف ما أبهمنا بكلمات موجزة أيضاً، ولانخرج من الإجمال إلى الإسهاب، ولكن نجمل في بيان مصادر التصوف، فنقول :

نشأ التصوف روحياً، وإن كان عند بعض الناس أخذ مسلكا شكلياً فظهرت الأمور التي أشرنا إليها آنفاً، ولقد نشأ من ينبوعين صافيين :

أولهما - هو انصراف بعض العباد المسلمين إلى الزهد في الدنيا والانقطاع للعبادة، وقد ابتدأ ذلك في عصر النبي ﷺ، فكان من الصحابة من اعتزم أن يقوم الليل متهجداً، ولا ينام، ومنهم من يصوم ولا يفطر، ومنهم من انقطع عن النساء، فلما بلغ أمرهم النبي ﷺ قال : « ما بال أقوام يقولون كذا وكذا لكنى أصوم وأفطر وأصلى وأنام وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»، ولقد نهى عن الرهبة، وقال ﷺ: رهبانة أمتي الجهاد.

وبذلك بين النبي ﷺ معنى الزهد، وهو طلب الحلال، وألا يحرم ما أحل الله كما تلونا من قبل آيات الله تعالى في ذلك.

ولكن بعد أن انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، ومضى عصر الصحابة والتابعين

دخل في الإسلام من كان في نفوسهم أثر من المذاهب القديمة الذين كانوا يحسبون تعذيب الجسم لتقوية الروح نوعاً من العبادة.

ولكن مع شيوع هذه الأفكار لفظتها المبادئ الإسلامية، وبقي معنى الزهد الذي قرره الإمام أحمد فيما أسلفنا من قول: « الزهد الاقتصار على الحلال ».

وبالجمع بين هدى النبي ﷺ، وما جاء من منازع تحارب الحلال، كان التصوف الإسلامي الذي لا يقطع عن الحياة، ويربى الروح والقلب، ويوجهها إلى الله تعالى، وكان المزج الكامل بين متعة الحلال، وقطم النفس عن الشهوات.

هذا الينبوع إسلامي خالص، وما خالطه من منازع أخرى، قد رخصها الإسلام وأبعده العلماء، فكان في دائرته المعقولة.

والينبوع الثاني للتصوف، وهو ليس إسلامياً، وإن تلاقى في بعض نواحيه مع الأخلاق الإسلامية التي دل عليها القرآن والسنة، وما كان عليه الصحابة رضوان الله تبارك وتعالى عليهم، وذلك الينبوع هو ما سرى إلى المسلمين من فكرتين: الأولى فلسفية، والثانية من الأديان القديمة كالتنصاري وغيرهم ممن انتحلوا نحلاً باطلة.

والنظرة الأولى لهذه، ترى أنها زندقة نبز التصوف الإسلامي منها تبرئة مطلقة، وإذا كانت قد جرت على أقلام أو أقوال بعض من نسب لهم التصوف، فهي زور من القول على الإسلام وأهله.

ولنتكلم عن الفكرة الفلسفية الأولى فهي نبعت بين الإشرائيين من الفلاسفة، وهم يرون أن المعرفة تقذف في النفس بالإشراق الروحي، ومنه تكون الرياضة الروحية والتهذيب النفسي.

وإن هذا بلاريب ينبوع صاف يتجه بالنفس إلى التهذيب الروحي والاتصال بالله، ولكن اختلط بهذا النظر الفلسفي ما جاء عن الديانات السابقة كاليهودية والبرهمية والنصرانية من تعذيب الجسم لتطهير الروح في زعمهم، واختلط بهذا عنصر ثالث، وهو ما سمي بوحدة الوجود، وجاء تبعاً لوحدة الوجود الطول وهو حلول الله في نفوس بعض المخلوقين وذلك كفر وإلحاد.

ومنهم أو كلهم من غلبت عليه نظرية الإشراق وزال من نفوسهم ماعداها .

ومهما يكن فإن هذه الأفكار تبلورت، ولفظ بعضها بعضاً، فكان التصوف الذى ظهر قوياً فى القرنين الرابع والخامس ومن بعدهما السادس الهجرى، ثم ظهر أشكالا لاروح فيها فى القرن السابع والثامن وتوارثت أجيالنا الأخيرة هذه الأشكال.

والجوهر كان قائما مع الأشكال فى القرون الأولى، وبه كانت الدعوات الدينية المخلصة، واستمر الجوهر قائماً إلى اليوم، وإن اختفى وراء المظاهر، وتريد جماعات إحياءه .
وإننا نعتقد أن مذهب الإشراق الروحى هو الجوهر فى الفلسفة الصوفية الإسلامية فيه، وقد رخص عن جسمه فكرة الطول، وتعذيب الجسم لتطهير الروح الذى سرى إلى المسلمين من البرهمية والبوذية، والانتقاع عن الحياة الذى سرى إلى التصوف من الرهبانية النصرانية.

ولكن بقى له مع الإشراق ناحية قريبة من وحدة الوجود، وهى ناحية الشوق إلى الله تعالى ومحبته.

ولذا نرى أن صوفية الإسلام يلتقى فيها أمران : أحدهما الإشراق والثانى الشوق إلى الله تعالى ومحبته، والمحبة قدر مشترك بين الصوفية المسلمين أجمعين كإشراق، وقد راض بعضهم نفسه على المحبة، واتخذ منها سبيلا للاتصال بالله تعالى، وذلك منزع ليس فيه حلول، وليس فيه ما يسمى بوحدة الوجود، بل هو إشراق النفس بنور الإيمان وامتلاؤها بمحبة الله، ورياضة النفس على محبة الله، حتى يكون سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، وحتى يكون كل شئ فى نفسه، فلا يتحرك حركة عن حركة إلا فى سبيل رضاه ومحبته، وحتى يحب الشئ لا يحبه إلا لله.

التربية الصوفية

٤٩ - انتهينا من ذلك إلى أن الإشراق الروحى، والشوق إلى الله تعالى ومحبته وامتلاء النفس بهذه المحبة هى سمة التصوف الإسلامى، وهو الجامع بين أهل التصوف، وإن ذلك يجىء بعضه فيضاً من الفيوضات الربانية وبعضه من التربية والرياضات الروحية، ولذا

اتجهوا في معالجات النفس لتمتلي بالإشراق والشوق المحب إلى الله تعالى، ولتكون على اتصال دائم بالله تعالى، ويعمر القلب بذكره.

اتجهوا في معالجة ذلك إلى أمر عام، وأمر خاص، أما الأمر العام فهو قراءة أورد
هي أدعية مقربة إلى الله تعالى، يضرعون فيها إلى الله تعالى، ويحاولون بها أن يقربوا منه
بالمداومة على هذه الأورد.

ومن أعلى الصوفية درجة، وأقربهم بالحق رحماً من يجعل ورده القرآن يتلوه ويتدبر
معانيه، وهو أثبت الصوفية قدماً، فالقرآن أعظم ما يقرب العبد من ربه، فقد قال تعالى :
«الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين
جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله»^(١).

وإن الأورد من كتابة بعض الشيوخ المتبتلين، وأنى يكون كلامهم بجوار كلام الله
تعالى، وأنى للصوفية في هذا العصر إلى أن يكون هذا وردهم الأول والأعلى، وإن تلاوته هي
التي تربي الشوق إلى الله، وتلقى في القلب بمحبته، فإن من يقرؤه، إنما يحدث الله تعالى
بكلامه العزيز، وأنه يوجد الإشراق في النفس، إذ تحف ملائكة الله تعالى عند تلاوته فيشرق
العقل والنفس والقلب بنوره.

هذا هو العلاج الأول لتربية النفس وهو علاج عام، أما العلاج الخاص فهو التربية
الخاصة بين الشيخ ومريده أو تلميذه، وهي تربية نفس المريد أو التلميذ، لتكون مستعدة
للإشراق الروحي، والشوق والمحبة، وقد لزم هذه التربية الخاصة أمران :

أولهما- ملازمة المريد لشيخ يتبعه ويوجهه، ويشرف عليه في تربية قلبه ونفسه ويقدم
له غذاء روحياً، بملازمته في غسواته وروحاته، وإنهم يعملون تلك الملازمة مع المشاركة
الوجدانية أقوى القرائض، وأنه يكون بين الشيخ والمريد استهواء روحى يوجه نفسه، ويقمع
حسه، فيعكف على القلب يوجهه، وعلى النفس يهذبها ويهديها، وإذا استقامت النفس
أشرقت الحكمة على القلب، وقذف الله تعالى فيه بنور يضئ بين يديه السبيل في مضطرب
الحياة ومتنارع الأهواء.

(١) الزمر : ٢٣.

ثانيهما- أن النفوس متى زكت، وامتلات بالإشراق والمحبة تكشف المستور وتبين بين يديها الخبيء من الأمور.

وإن هذه الطريقة فى تربية النفس وتهذيبها وتقوية اتصالها بالله تعالى قد يحتاج إليها كل مصلح دينى أو خلقى، فإن ملازمة رجل ممتلىء بنور الحكمة وله قوة نفسية، وفيه خلق حكيم وقلب سليم، مما يهذب الشباب، ويجعل من الشذاب والخارجين على الجماعات من يهتدون ويسلكون الطريق المستقيم.

٤٢- وقبل أن ننهى ذلك الموجز فى التصوف والصوفية نشير إلى أمرين :

أولهما- أن الشيوخ الذين كانوا يروّضون الناس على المحبة والشوق إلى الله تعالى بدا من عبارتهم أن المحبة إن حقت، فإن العاصى والمطيع يكونان على سواء، مع أنه إذا تحققت المحبة لا يكون هناك عاص من المحبين، إذ كيف يحبه ويعصى، إنه إن لم يطع تكليفا أطاع محبة وتقربا، وطلبا للرضوان.

ومع ذلك بدت منهم عبارات يدل ظاهرها على التساوى بين العصيان والطاعة فى أدعيتهم، فيقول المرسى أبو العباس فى دعاء له:

«إلهى، معصيتك تنادىنى بالطاعة، وطاعتك تنادىنى بالمعصية، ففى أيهما أخافك، وفى أيهما أرحمك، إن كان بالمعصية قابلتنى بفضلك، فلم تدع لى خوفاً، وإن قلت بالطاعة قابلتنى بعدك، فلم تدع لى رجاء، فليت شعرى، كيف أرى إحسانى مع إحسانك، أم كيف أجهل فضلك مع عصيانك».

ويقول ابن عطاء الله السكندرى فى بعض أدعيته :

« إلهى إن ظهرت المحاسن منى فبفضلك، ولك المنّة على، وإن ظهرت المساوئ فبعدك، ولك الحجة على».

هذه نظرات متصوفة صادقين قد وصل بهم القرب من ربهم ومحبتهم فى قلوبهم إلى أن الله تعالى، الجميع أمامه سواء، ويغالى بعضهم فيقول إنه إذا كانت الشريعة قد فرقت بين المطيع والعاصى، فالحقيقة قد قررت أنه أمام الله تعالى لافرق. ولكن من يصل إلى الحقيقة؟، ولذلك كانت الشريعة أولى بالاتباع، لأن الوصول طريقه واضح المعالم، بين

المسالك، ولأن الله تعالى جعل الطاعة لشريعته ولرسوله، طريق محبته، فقد قال تعالى: «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم»^(١).

بل نستطيع أن نقول: إننا لانصل إلى الحقيقة عن طريق الشر.

وإنهم ليقررون أن المعصية ثم الاستغفار منها تقرب ولا تبعد، وإن تقرب الاستغفار أكبر من تباعد العصيان، ويقولون إنه ورد عن النبي ﷺ أنه قال :

«لو لم تذنّبوا فتستغفروا لخلق الله قوما يذنبون فيستغفرون» ويقول ابن عطاء الله السكندري: إن معصية أورثت ذلاً وانكساراً خير من طاعة أورثت ذلاً وافتخاراً.

ثانيهما - أن منهاج العامة من الصوفية ليس على هذا النحو الذي سلكه الخاصة، ذلك أن أتباعهم لم يبلغوا ذلك المبلغ، ولم يدركوا من الحقائق ما أدركوا، فهم فهموا أن لامعصية ولا طاعة، وأنه يكفي بالمحبة ويدعونها لأنفسهم، ومنهم من خلع الرتبة.

ووجد من ادّعى أنه الشيخ المتبوع في الصوفية، ولم يمنعه ذلك من أن يتناول الممنوع، ثم اجترع اللذات، ونال من الموبقات من غير حريجة دينية تمنعه، ولانفس لومة تدافعه، بل اتخذ التصوف ستاراً يستر به مآثمه، ومنهم من كان يدعى مع ذلك الولاية.

ومن العامة من لا يعرف من التصوف إلا مظاهره ومن حقائقه إلا أشكالها، ومنهم من كان يشيع أنه يكفي اتباع شيخ من الشيوخ أو ولي من الأولياء، حتى تكون الخوارق، فالنار لا تحرقهم والأفاعي لا تلدهم، وقاموا بأعمال شعبية تضل العقول، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل.

٤٣- هذه هي الصوفية ابتداءً، وانتهاءً، ونحن إذا قلنا: إن التصوف حمل الدعوة الإسلامية أو كان منهم من حملوها لانقصد العامة، ولا الذين اتخذوها أشكالاً ومظاهر ومواكب تخترق الطرقات، إنما نقصد الصفوة المختارة منهم التي صفت نفوسها وربت مرديهم وتلاميذهم على الخير، والعمل، كالشيخ عبد القادر الجيلاني، وأبي الحسن الشاذلي، والمرسي أبي العباس، وابن عطاء الله السكندري، والشيخ أحمد التجاني، والسيد محمد بن علي السنوسي، فلو كان كان لهم مقام في الدعوة إلى الإسلام.

(١) آل عمران ٣١

وإننا إذا تكلمنا فيمن يدعون إلى الإسلام من الصوفية لانقصد الذين قاموا بالشعبذة والتعرض للأفاعى، كما لا نتصور أن منهم الذين يقولون بتساوى الحسنة والسنة، ولا الذين يقولون إن المطلوب الحقيقة لا الشريعة.

ولكن نتكلم عن أئمة الصوفية الذين تصدوا للوعظ العام والذين لم يترهبنا، فهؤلاء هم الذين دعوا إلى الإسلام، وانتشر الإسلام فى كثير من نواحى البلاد الإسلامية ببعضهم.

للدعاية الصوفية

٤٤- الدعاية الصوفية كانت تقوم على أمرين :

أحدهما- من القدوة والاختلاط، والأخلاق الإسلامية والتسامح والرفق فى المعاملة، والمثل الطيبة الواضحة فى المعاملة الحسنة.

وذلك ان أئمة الصوفية كالقطب عبد القادر الجيلانى، وأبى الحسن الشاذلى والمرسى أبى العباس، وابن عطاء الله السكندرى، كانوا على أخلاق إسلامية طيبة، وكانوا على سماحة تدنى البعيد، وتثبت القريب.

وبهذه الأخلاق التى سرت إلى بعض مرديهم وأتباعهم كانوا يجذبون إلى الإسلام طوائف من غير المسلمين الذين يختلطون بهم، فإن المعاملة الحسنة، والاختلاط الذى يكون بعشرة طيبة يجذب النفوس، وتسرى بها العقائد الفاصلة، فتسرى العقيدة العالية إلى مادونها كما يسرى الماء العذب من المكان المرتفع إلى المكان المنحدر.

وقد كان هؤلاء الآحاد من المتصوفة الذين لا يشعبون بل يتعبدون ويختلطون بأهل أفريقيا الوثنيين، والمجوس والوثنيين فى آسيا، فيؤثرون بمعاملتهم، وبسعة صدورهم، وعقولهم بأكثر مما يؤثر القول، وقد كانت تقترن بهذه الأخلاق دعوات أحادية أحياناً.

الثانى من الأمور التى كانت تقوم بها الدعاية الصوفية مجالس الوعظ التى كان يعقدها الأئمة من الأقطاب، فقد كانت مجالس عامة يحضرها المسلمون، ويحضر فيها غير المسلمين فيتبعون الشيخ فى مواعظه ثم يعلو الأتباع حتى يتبعوه فى عقيدة الوجدانية، وكان

من هؤلاء من له ثقافة إسلامية واسعة، وعلم بالإسلام أصوله وفروعه كعبد القادر الجيلاني الذي عاش في القرن الخامس والسادس الهجري من ٤٧٠ - إلى ٥٦١ - فقد كان عالماً بالأصول والفروع، والحديث رواية ودراية قد جلس للوعظ أربعين سنة، فقد ابتدأ واعظاً، من سنة ٥٢١ ومفتياً من سنة ٥٣٦ إلى أن قبضه الله تعالى، وكان منصب الإفتاء كان في نظره أعلى من منصب الوعظ، لأنه ما تصدى للإفتاء إلا بعد الستين.

وكانت تعقد مجالس وعظه، وتكون موعظته عامة لا يمنع منها أحد ولا يمنع فيها من الحضور أحد، فكان يدخل اليهودي والنصراني، والمجوسي والوثني، وقيل إن مجلسه كان يحضره نحو أربعة آلاف، وما كان المجلس ينقض إلا على إسلام كثيرين، ومنهم من كان يحضر إليه طالبا الهداية، فيسلم على يديه.

لقد جاء في كتاب (قلائد الجواهر في مناقب عبد القادر) «أنه أتاه في مرة ثلاثة عشر رجلاً من النصاري، وأسلموا على يديه في مجلس وعظه، وقالوا نحن من نصاري العرب وأردنا الإسلام، وترددنا فيمن نقصده لنسلم على يديه، فهتف بنا هاتف نسمع كلامه، ولانرى شخصه : أيها الركب ذو الفلاح انتوا بغداد وأسلموا على يد الشيخ عبد القادر، فإنه يوضع في قلوبكم ببركته ما لم يوضع فيها عند غيره من سائر الناس.

ومع ما كان يفد إليه من الناس بحكم ما نال من سمعة وبركته وإخلاصه، كانت مجالسه التي كان يحضرها أحياناً عدة تبلغ أربعة آلاف يحضرها بعض المجوس والمسيحيين وغيرهم من غير المسلمين، وهو يتجه في دروسه إلى ثلاثة اتجاهات : أولها وأغزرها يتعلق بالقلب وتطهيره من الأرجاس وتربية المحبة فيه، وبعضها يتجه إلى بيان العقيدة الإسلامية بياناً واضحاً بيناً لا اعوجاج ولا تعقد، يعتمد على القرآن والحديث في بيان العقائد، ولا يتعرض لعلم الكلام إلا عند الاضطرار إلى الأدلة المنطقية، وفي كثير يتجه منها إلى بيان الأحكام الفقهية مبيناً أسرار هذه الأحكام، والحكمة في شرعيتها متجهاً في بيانها إلى تربية الأخلاق الربانية، لأنه كان ربانياً.

فبهذا البيان الحكيم، وبما حف به من بركات، كان ربانياً في أخلاقه وبيانه وسلوكه، فكان النصاري والمجوس الذين يحضرون درسه ينجذبون إلى الحقائق الإسلامية انجذاباً، ويفضل إخلاصه، واستقامة نفسه وعقائده وحسن أدائه، وما يحف به من بركاته، يسلم الناس من غير دعوة إلى الإسلام، بل إنه بهذا الأسلوب النوراني يفتح القلوب.

فكان القطب عبد القادر الجيلاني مربياً لنفوس مريديه، وداعياً إلى الحق وإلى الهداية، ومن هذه الناحية دخل في الإسلام على يديه الكثيرون لطهارته وإخلاصه، وحسن دعوته إلى النور من غير تكلف.

الصوفية والإسلام في إفريقيا

التيجانية:

٤٥- ذكرنا ما كان من أثر في تصوف الصوفية من أقطابها من أمثال القطب أحمد الرفاعي، والقطب عبد القادر الجيلاني، واخترنا عبد القادر مثلاً طيباً للدعوة الإسلامية، وما كان لنا أن نتبع الأقطاب قطباً قطباً، ولكننا اخترنا مثلاً صالحاً، لمن لم نذكرهم، على أنه واحد منهم، والآن نقفز قفزة مكانية وتاريخية لنجتاز إلى إفريقية فإنه دخلها نور الإسلام بالدعاة الأولين في شمال إفريقية في ليبيا وتونس والجزائر، والمغرب الأقصى، ثم اجتاز البحر إلى الأندلس، وذلك بالدعاة الذين حملوا القرآن داعين إلى الإسلام ومزيلين كل الحجزات التي تحول دون الدعوة، حتى أزهروا، وكان في الأندلس حاملاً للحضارة التي لم يعرفها أهلها من قبل.

ولكن الإسلام لم يتغلغل في وسط إفريقيا السوداء في أول الأمر لأنها كانت مجاهل، وكانت الجهالة تسيطر عليها، ولم يتجه القائلون إليها ابتداءً، بل اتجهوا إلى النوبة ثم السودان الذي يسير فيه النيل، وقد عمر أهل الشمال فيه بالعرب الذين أووا إليه من مظالم من اغتصبوا الأمور من الخلافة العباسية، ولذا تجد في شمال السودان كثيراً من العباسيين الذين هربوا من الاضطهاد عند الغزو التتري.

وإن الحضارة كان لهم الأثر الواضح في دخول الإسلام في شرق السودان، وترى آثارهم واضحة في ذلك، وكثيرون منهم يقيمون مع إخوانهم الأفريقين.

أما في غرب إفريقيا ووسطها فكانت الدعوة إلى الإسلام تجيء من شمال إفريقية قوية واضحة نيرة.

وكان للصوفية فضل كبير فى هذا فإن أتباع أبى الحسن الشاذلى، والمرسى أبى العباس، ونشاط ابن عطاء الله السكندرى كان لهم دخل بالقنوة والمسلك فى أفريقيا، والفضل الواضح الأثر كان للتيجانية والسنوسية فى القرون الأخيرة، فقد كانت التيجانية لها عناية شديدة بالدعوة إلى الإسلام، فى غرب أفريقيا ووسطها، وكان السيد أحمد التيجانى ١١٥٠ - ١٢٣٠م، ومن جاء بعده لا يقتصرزون فى تعاليمهم على بث التصوف والزهادة والروحية، بل يجتازون إلى أفريقيا السوداء ييثون فيها الإسلام، ويربونهم، كانوا يعلمون الزنوج الإسلام، وينشئون لهم معاهد تدرس الإسلام، ثم يرجعونهم إلى أقوامهم دعاة، ومدرسين فى المعاهد التى أنشئوها، وقد استمروا على ذلك حتى انتشر الإسلام فى غرب أفريقيا ووسطها، حتى إنك ترى الكثرة الكاثرة فى ساحل الذهب وساحل العاج، وغانا وغينيا، والسنغال والكنغو ونيجيريا من المسلمين الأقوياء فى تدينهم، وإن كان فيهم جهل يحتاجون معه إلى من يعرفهم بالأحكام الإسلامية بإجمالها وتفصيلها وفروعها وكلياتها.

ولما استعمرت أوربا أفريقية، وأرسلت لها المبشرين فرادى وجماعات، لم تستطع تنصيرهم ولم يستطيعوا أن يهضموا بعقلهم الفطرى المستقيم المعانى التى يدعو إليها نصارى هذا الزمان، فنصرانية اليوم غير مسيحية المسيح عليه السلام.

ولكنهم -أى الأوربيين- جعلوا حكامهم من غير المسلمين، ولا يزالون بعد أن خلعوا نير الاستعمار من فوق رقابهم، أولئك الحكام يعملون بجذع أنوفهم ليقروا على جهالتهم، ولكن النور دخل إلى قلوبهم، فاتجهوا إلى العمل على تولى السلطان، واتجه المتحكمون إلى إبعادهم عن العلم ولكنهم لا يقرون على الوقوف ضد التيار، ولذا أخذوا يتملقون ويدهنون ليقروا فى حكمهم.

والحبشة كثرتها الساحقة مسلمة بالدعوة الحضرمية، ولكن حكامهم يحولون بينهم وبين العلم، ولا يمكنون منه إلا من هو نصرانى ليميت الجهل المسلمين والإسلام دين العلم.

ومهما يكن فإن المتصوفة من التيجانية لهم دور كبير فى إسلام غرب أفريقيا مع السنوسية والجيلانية.

السنوسية:

٤٥- لن نتكلم فى الدولة التى نشأت فى أعقاب الحرب العالمية الثانية بليبيا والتى رأسها ملك من أحفاد السيد السنوسى، الذى كان قائماً بالدعوة إلى الإسلام نقياً من الشوائب، وألف فى ذلك الكتب يدعو فيها إلى تنقية الإسلام مما خالطه من أوشاب الزمان،

وتوالى الأزمنة، إنما نقصد تلك النزعة الفكرية القوية التى نشأت فى الزوايا التى أنشأها محمد بن على السنوسى، وابتدأ بها فى أبى قبيس بمكة، ثم مدينة الرسول ﷺ، ثم أنشأها فى ليبيا والجزائر، والصحراء، حتى وصل إلى بحيرة تشاد فى وسط أفريقيا، والتى كانت تقوم بالدعوة إلى الإسلام، تدعو إليه نقيابين المسلمين، وتربية روح القوة، والأخذ بما هو من أسباب القوة فى العصر الحاضر، وتدعو الوثنيين ويقايا العناصر القديمة إلى الإسلام فى وسط أفريقيا وسواحلها، ودخل استجابة لهذه الدعوة القوية المستمرة عدد لا يحصى إلا بألوف الألوف فى نيجيريا وغانة وغينيا والسنغال والكونغو وتشاد، وأوغندا، وزرديسيا، وغيرها من وسط أفريقيا، وقد ضايق ذلك المبشرين، وحاولوا أن يتباروا معهم فباءوا بالخسران لسلسلة ما تدعو إليه السنوسية وتعقيد ما يدعو إليه دعاة المسيحية.

وإن الزوايا التى أشرنا إليها، وأنشئت فى الجزائر وتونس وبرقة، وتغلغل فى الصحراء الغربية حتى وصلت إلى الأراضى الخضراء حول وادى النيل، وغيره من أنهار أفريقيا، وكانت أولى ثمرات هذه الزوايا خصوصاً بين الوثنيين ذبوع الدين الإسلامى فى قلب تلك القارة المظلمة، ونجحت تلك الدعوة السنوسية فى هذه الجهات لدرجة أن صارت جمعيات المبشرين الأوربية المنبثة فى القارة الأفريقية كلها تجد فى الدعوة إلى الإسلام من السنوسيين خصماً عنيداً، ولا قبل لها بالتغلب عليه مع ما أوتيت من مال وقوة دولية، انظر كتاب (السنوسية دين ودولة للدكتور محمود فؤاد شكرى).

كان كبير السنوسيين يرسل الرسل إلى الزوايا، وينقلون القوافل والسائرين فى الصحراء، يدعونهم إلى الله آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر هادين الوثنيين، حتى تكونت من عمل هؤلاء، وعمل من سبقوهم من التيجانية، الذين ينتمون إلى الطريقة الشاذلية مثلهم أن وجدت دول إسلامية الكثرة الكثيرة فيها مسلمون.

ولقد تلمل المتعصبون من الأوروبيين من هؤلاء السنوسيين فحاربوا دعوتهم، ودسوا بينهم وبين الدولة العثمانية التى كانت تلك البلاد تابعة لها أو خاضعة لنفوذها.

ولكنهم كانوا ماضين فى بث الإسلام فى نفوس الأفريقيين، وإن ضج منهم المبشرون وضاقوا ذرعاً بهم إذ وجدت الإرساليات النصرانية التبشيرية فى السنوسيين خصوماً أقوىاء أشداء فى عملهم لا يملون، ولا يقرون على وقف حركاتهم، وقد عطلوا أعمالهم، وأفسدوا عليهم دعاياتهم، وإن التبشير كما هو معلوم لمؤرخى العصور الحديثة نذير الاستعمار يتقدمه، ويقويه.

ولذلك أحست الدول التي باشرت استعمار أفريقية كفرنسا وإيطاليا، بخطر الدعوة الإسلامية ونشرها، على مطاعمهم المتعصبة ضد الإسلام، وإن ظهرت بغير ماتخفى، ولذلك حاربت السنوسية أو حاربت فيها الدعوة إلى الإسلام، بكل الطرق المحللة فى قانون الأخلاق والمحرمة على سواء.

وقد اتجهت الدعوة السنوسية إلى جنوب السودان، وكان آخر السنوسيين فى قوة دعوته وإخلاصه السيد أحمد الشريف السنوسى ابن عم من صار ملكا من بعد، كان قد رأى جنوب السودان هو الذى لم تعم دعوته، فأرسل الرسل إليه من السنوسيين، يدعون إلى الإسلام حتى ضاق بهم ذرعا المندوب الإنجليزى إذ ذاك وهو اللورد كتشنر، فأرسل إلى السيد السنوسى يتضرع إليه أن يخفف دعوته.

ولولا حرب الطليان مع السنوسية فى سنة ١٩١١ وسنة ١٩١٢ لحول الجنوب السودانى إلى مسلمين، ولأحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم.

الدعوة الإسلامية الآن

٤٧- ذكرنا أن الدعوة الإسلامية واجبة، وأنها تبليغ رسالة النبى ﷺ وأنها فرض على الكافة، فرض كفاية على الجماعة الإسلامية كلها، بحيث يجب على الأمة الإسلامية مجتمعة أن تهين جماعة من بينها تكون عندها القدرة على الدعوة الإسلامية ولها مؤهلات علمية، بحيث تكون على علم كامل بالإسلام فى كلياته، ولها علم بالبيان وقدرة عليه، ولها علم بالنفوس الجماعية والأحادية، ولها قدرة جسمية وعقلية، ودرية على الاتصال بالجماعات، والمشاركة الوجدانية بهم، والتغلغل فى نفوسهم. وهؤلاء هم الذين ينطبق عليهم قول الله تعالى: «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله، وهو أعلم بالمهتدين»^(١)

وقلنا إن كل واحد من المسلمين عليه واجب خاص، وهو أن يدعو من يعرف، من عشراء وجيران، ودعوته إليهم ببيان الإسلام على قدر ما يعرف، وكذلك كان يفعل الصالحون من المؤمنين فى صدر الإسلام، وما جاء بعده من عصور.

وإن من أقوى الدعوة العامة حال المسلم فى خلقه ودينه، وعقله واستقامة نفسه، فقد ذكرنا أن القدوة كانت أقوى داع إلى الإسلام، ولانقول مثبطين إن حال المسلمين منفرة عنه،

(١) النحل : ١٢٥.

مبعدة الدخول فيه، لانقول ذلك، ولكن يجب أن تكون الأخلاق الإسلامية المستمدة من القرآن والسنة وأعمال السلف الصالح، واضحة فينا، وإذا كنا قد تخلفنا عنها في الماضي، فإنه يجب علينا أن نزيل غباره في نفوسنا وأخلاقنا، وأعمالنا، وأن نظهر هادين مرشدين، كما كان أسلافنا رضى الله تبارك وتعالى عنهم.

وليسوغ لنا أن نظن أن الفقر منفر من الإسلام، وأن الغنى والظهور به مقرب من الإسلام، إنما الأمر أمر النفوس وحسن العشرة، وقد رأينا في عصرنا، وفي الأيام القريبة أن أصحاب المهن الصغيرة في الأعين كالحمالين والنساجين، والعمال غير الفنيين تبدو منهم أخلاق في حسن العشرة والائتلاف مع إخوانهم، والوفاء والفداء مالم يس في غيرهم، وكان منهم، وهم الذين لا يعلمون إلا قليلاً، يؤبون أركان دينهم من صوم وصلاة، وصدقات من قوتهم - من يجذبون الناس إلى الإسلام، وهم بهذه الحال المتواضعة، وما نقص تواضع من عزة.

وكنتم أرى منهم من يذهب إلى المحكمة الشرعية، ومعه صاحب مسيحي، وشاهدان يشهدان بتوثيق الإسلام، فسألت رئيس المحكمة عن ذلك. فقال لي : لا يخلو يوم من مثل هذا، وكان ذلك أيام كانت المحاكم الشرعية توثق الإسلام.

فالاعتبار هو في النفوس لا في المظاهر من لباس ورئي.

تنظيم الدعوة

٤٨ - نتكلم في هذا الموضوع على شعب ثلاث:

(أ) كيف تتكون الجماعة الداعية إلى الإسلام تنفيذاً لفرض الكفاية، وكيف يكون تنفيذ الدعوة الأحادية، أو الفردية.

(ب) أساليب الدعوة

(ج) مادتها.

الجماعة التي تتولى الدعوة، يجب أن يكون تكوينها عمل الجماعات والأقاليم الإسلامية، وقد أعملنا في الماضي تكوين تلك الجماعة التي تقوم بهذا الفرض الكفائي، الذي يكون واجباً على الخصوص وعلى العموم كما يقول الإمام الشافعي رضى الله تبارك وتعالى عنه في رسالته في علم الأصول.

ووجوبه على الخصوص أى يكون فرضاً عينياً، بالنسبة للجماعة التى تكونت، وحملت عبء الدعوة ووجوبها على العموم من حيث إن جميع المؤمنين عليهم أن يكونوا هذه الجماعة، وكذلك الشأن فى كل الفروض الكفائية، لها جانب خصوص تلزم به الجماعة التى تألفت لذلك الفرض الكفائى، وواجب على العموم من حيث ذلك التأليف كالطب هو فرض عين على الأطباء، وفرض كفاية على العموم من حيث إنه يجب على الجميع أن يعملوا على تربية الأطباء فى فرع من فروعهم.

فعلى كل إقليم أن يربى جماعة للدعوة إلى الإسلام، ولعلنا لانكون داعين إلى عجب إذا دعونا فى كل جامعة إسلامية أن يكون فى الدراسات العليا بها دراسة خاصة بالدعوة الإسلامية، تخصص لهذه الدعوة، تدرس علوم القرآن والسنة دراسة خاصة بالدعوة الإسلامية، فتيبين فى القرآن أخبار الأنبياء السابقين، وطرق دعايتهم، بدعوة الله تعالى إلى دينهم، وتدرس السنة دراسة يتبين منها طرق دعوة النبي ﷺ إلى الله وطرق تبليغ رسالته، وتدرس الأحاديث الخاصة بهذه الدعاية.

وتدرس بها لغات البلاد التى يراد الدعوة فيها، وأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية والعادات الاجتماعية فى هذه البلاد.

ويدرس بهذا النوع من الدراسة علم النفس من كل جوانبه، وتدرس الخطابة، وطرق الدعوة وأساليبها، وعلم أدب البحث والمناظرة، وغير ذلك مما يحتاج إليه البيان، ويدرس علم مقارنة الأديان.

ويقبل فى هذه الدراسات العليا المتخصصة للدعوة غير طلبة الجامعة الإسلامية المتخصصين للدراسات الإسلامية من تفسير وفقه وحديث، ولغة عربية— طلبة الكليات النظرية والعلمية إذا أرادوا أن يتخصصوا للدعوة الإسلامية.

وإن ذلك له مكانه فى الدعوة الإسلامية، لأنهم يستطيعون أن يكونوا دعاة للإسلام، ويدعون فى طبهم إلى الإسلام بالتبرع بخبرتهم الطبية، وكذلك المهندسون، والتجارىون، والزراعيون، وإنه فى البلاد النصرانية يوجد أطباء ومهندسون وغيرهم من المتخصصين من العلماء من يريدون أن يدعوا إلى ملتهم ويبشروا بها، فيذهبوا إلى كليات اللاهوت، ويدرسوا فيها ولسنا بدعا فى هذا.

ويدرس فى هذا القسم من الدراسات العليا أحوال البلاد التى يذهبون إليها فى الدعوة الإسلامية، وهكذا يحمل المتخصص كل مؤهلات الدعوة إلى الإسلام، وتلك إشارة

معرفة، وعند الاتجاه إلى هذا تفصل المناهج تفصيلاً كاملاً لتكون مؤهلة لهذا العمل الذي هو عمل النبيين، وهو تبليغ رسالة سيد المرسلين، وخير الدعاة إلى الحق، وإلى صراط مستقيم.

وإن من واجب مجمع البحوث الإسلامية ومؤتمره الذي ينعقد كل عام أن يكون منه موجهون لهذه الدراسات، يتبعونها، ويشرفون عليها، ويوجهونه إن كان ذلك في دائرة الإيمان، ولم تحل المحاجزات الإقلمية دون ذلك.

وإنه بجوار ذلك تكون ثمة مكاتب إسلامية تابعة لمجمع البحوث تتولى الخريجين من هذه الدراسات، وتوجههم إلى الأقاليم والبلاد التي يمكن أن تقوم فيها الدعاية الإسلامية إذ تكون الأرض صالحة، والنفوس مستعدة لمعرفة الحق في الأديان، وإننا نرى أنه عقب الحرب العالمية الثانية كانت النفوس متقبلة للدعوة الإسلامية في بلاد الجerman ولكن لم يكن ثمة دعاة إلا من بعض القاديانيين.

الإشراف على الدعوة:

٤٩- ومع هذه الجماعة التي تتخصص لإقامة الدعوة، وتكون الدعوة فرض عين بالنسبة لها، كما يكون الطب فرض عين على الطبيب، ويكون على المجموع إقامتها.

مع هذه الجماعة توجد دعوات أحادية لا يمكن الرقابة على توجيههم ولكن يمكن إرشادهم إلى أمثل الطرق، وإذا يجب على الوعاظ الذين يعظون في المساجد، وأئمتها أن يبينوا للناس واجبهم في هذا وأمثل الطرق، ويبينوا أن ذلك قيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن ذلك يكون حسبة في سبيل الله، وأن العشرة الحسنة والرفق، وأخذ المخالفين بالمعاملة الحسنة، وألا يجافوهم، ويستندوهم بالمودة الرابطة، وأن يعرفوا أنه لا يدنى القلوب كالمعاملة الطيبة والرفق في القول، وألا يسبوا الله بغير علم، فقد قال تعالى: «ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عنواً بغير علم»^(١).

وذلك فوق أن سب دينهم، ينفرهم، ولا يقربهم، ويوجد العناد في قلوبهم، وحيث كان العناد كان الجمود، وحيث كانت المودة، كان القرب، وتفتح القلوب ليدخلها نور الإسلام.

وإنه توجد جماعات في البلاد الإسلامية تخصص نفسها للدعوة الإسلامية وجدناها في لاهور سنة ١٩٥٨، وهذه الجماعات تخصص جزءاً من أعمالها للدعوة إلى الإسلام، فيخصصون عشر أوقاتهم وأموالهم، وجهودهم للدعوة إلى الإسلام.

(١) سورة الأنعام: ١٠٨

ويخرج الواحد منهم مجاهداً في سبيل الدعوة، لا يحمل أى شئ يقوى إلا قوة نفسه، ورغبته في تبليغ رسالة النبي ﷺ، يذهبون إلى حيث يكون للدعوة مجيب، وقد أسلم على أيديهم أكثر من أسلم من زنج أمريكا وجزر الهند الشرقية وغيرها كأطراف أنغوليسيا.

وهؤلاء فيهم من يعلمون حق العلم ويدركون رسالة النبي ﷺ حق الإدراك، وبينهم من يعلمون علماً ابتدائياً، وقد يبلغون من يدعونهم أحياناً تعاليم غير سليمة في تفصيلات الإسلام، وإذا يجب على القائمين على الدعوة الإسلامية المتخصصين أن يكونوا على علم بما يقوم به هؤلاء، ويعلموهم، ويتعرفوا حال من استجابوا لهم، ويصححوا لهم ما عرفوا.

وإن كثيرين من هؤلاء يعلمون الإسلام على انحراف فيما يعلمون كالتقديسية، ولهم في ذلك نشاط بيب واضح، وحسبهم أن يدخلوا من أدخلوهم في الإسلام، وعلينا تصحيح إيمان أولئك الذين دخلوا في الإسلام ليكونوا مؤمنين.

الاتصال بالصوفية:

٥٠ - ذكرنا أن الصوفية في الماضي كان لهم دور في الدعوة الإسلامية، وقصصنا لك بعض القصص عن مجالس القطب عبد القادر الجيلاني، ومقام الشاذلية، ومن ساروا على نهجهم في ذلك.

وانتهينا إلى السنوسية، ومقاومتهم للتبشير النصراني، وتبرم أولئك هم ومن وراءهم من الفرنسيين والإنجليز والطلين، وغيرهم.

والآن نريد أن نتخذ من الصوفية في هذا الزمان مادة للدعوة إلى الإسلام، وقد رأينا بعض الدعاة إلى الإسلام من السودانيين يدعون إخوانهم من الجنوب إليه، إذ لا سبيل إلى الوحدة في السودان إلا بإسلام الجنوب، وجدنا أن من الصوفية من اتخذوا منهاجاً لهم الدعوة إلى الإسلام، حتى بالذكر والتمايل ذات اليمين وذات الشمال، فقد كانوا بذلك يجذبون العراة من الوثنيين السودانيين إليهم، فإذا جاءوا كسومهم بعد عرى، وأطعموهم، ودعوهم إلى الإسلام، أو بعبارة أدق علموهم الإسلام، وكانوا يستجيبون لهم أكثر من استجابتهم لمبشر النصراني، وكانوا يقولون للشيخ الصوفى : يا شيخ ، إتك خير من هذا الإنجليزي، وكلامك أطيبي، وأحسن.

وكانوا يسيرون بهم سير التدرج، فيعلمونهم الصلاة، فإذا جاء الصوم علموهم الصوم، وهكذا يدخلون الإسلام في نفوسهم جرعة، جرعة، كما دخل الإسلام في قلوب العرب متدرجاً، وإذا كان للصوفية تلك القدرة إن سلخوا مسلك أسلافهم، ولم ينقطعوا عن

الناس فى الخوانق أو يحصروا أنفسهم على المواكب بالبيارق، والذكر والتلوى لغير غرض مقصود من وراء أفعالهم.

وإن تنظيم أمورهم ليكونوا للإسلام من الأمور الممكنة، وإن لهم تأثيراً فى العامة، وفى أوساط الناس، وإذا تسربلوا بسربال الزهادة مع الدعوة إلى الإسلام أفادوا كثيراً وعلت مكائنتهم، إنهم ينبئون فى كل مكان وفى كل بلد، فلو اتجهنا فى سبيل الدعوة إليهم لكان فى ذلك خير.

إن مشايخ الطرق الصوفية فى كل الأقاليم الإسلامية لو اتجهوا إلى ما اتجه إليه أسلافهم فى الماضى ونظموا الدعوة إلى الإسلام فى مجتمعاتهم، لكانوا قوة فى الدعوة إلى الإسلام منتجة مثمرة، إن الزهادة فى الدنيا، أو الانصراف إلى الذكر، ولو كان بالقلوب ليس هو المقصد الأسمى من الإسلام، إنما هو ذكر الله الدائم فى القلوب، والعمل الصالح، وقد كان بدل الأبدال على بن أبى طالب فارس المسلمين، يعود من المعارك وسيفه ينطف دماً، وهو الزاهد الباكي إذا قرأ القرآن، وإذا عرضت له الدنيا قال لها : غرى غبرى.

إن الصوفى الكبير لا يكون قطباً ربانياً إلا إذا عمل عملاً ربانياً، كما فعل القطب عبد القادر الجيلانى، وكما فعل الأقطاب التيجانى والسنوسى، إنه عند تربية المريدين تهذب قلوبهم، وتعمر بذكر الله، وتمتلئ إيماناً به، فإذا اعترفوا مع ذلك بأنه من قوة الإيمان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والدعوة إلى دين الله تعالى، ويعلموا قول النبى ﷺ لعلى بن أبى طالب : «لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير مما طلعت عليه الشمس وغربت»

إن المتصوف إذا رغب فى التقرب إلى ربه بالصلاة والأوراد، والدعاء ليلاً ونهاراً يعمل لنفسه فقط وتقواه عائدة عليها وحدها، ولكن إن دعا الناس إلى الخير الذى وفقه الله تعالى إليه كان عاملاً لغيره مع نفسه، وأعظم الخير أن تهدى رجلاً إلى الإسلام.

وإنه إذا علم murid ذلك التعليم، كان من المجاهدين المتصوفين، ولقد قال النبى ﷺ «رهبانية أمتى الجهاد» وأول الجهاد الدعوة إلى الإسلام، بل إن الجهاد ما فرض إلا لإزالة المحاجزات التى تحول دون الدعوة إلى الإسلام.

إن البلاد الإسلامية من أقصى الأرض إلى أقصاها تؤثر فيها الدعوات الصوفية وأعمال الصوفيين، فإذا قاموا بحق الدعوة استجاب الناس لهم، إن كانوا مخلصين. وخلاصة القول أننا نريد أن تتوجه الصوفية إلى الدعوة إلى الإسلام فى ربوع الشعوب الإسلامية كلها، لا فى مصر وحدها.

إنها إن اتجهت إلى ذلك كانت أعلى قربة إلى الله وأنفع للناس، ولا تكون مجرد أعمال قد تتجه بها إلى الشعبذة، نريد تنقيتها، وجعلها نافعة للدين والناس.

أساليب الدعوة

٥١ - أساليب الدعوة تتكيف بحال العصر من أساليب الدعاية، وقد صارت الآن طرق الإعلام متعددة النواحي، فمنها الكتب المنشورة، والصحف السيارة، والأقوال المذاعة المرئية وغير المرئية، ومنها اللقاء بالجماهير والآحاد :

(أ) ولا شك أن الكتب التي تكتب عن الإسلام ومبادئه وما اشتمل عليه من عقائد سليمة تتفق مع ما يحكم به العقل السليم، والأحكام التكليفية سواء أكانت تتعلق بتهذيب الآحاد أم تتعلق بتنظيم العلاقات في داخل المجتمع الإسلامي، وعلاقات بني الإنسان بعضهم مع بعض، وأساسها الوحدة الإنسانية، والأخوة العامة، والتعاون الإنساني، ومع هذا التعارف التعاون الإنساني العام الذي يدعو إليه الإسلام، وما دعا إليه الإسلام من عدالة اجتماعية.

وهكذا تكتب الحقائق الإسلامية بكل اللغات الحية، وغير الحية مادامت موضع الدعاية الإسلامية.

إن العالم لا يعرف الحقائق الإسلامية إلا عن طريق أعداء لها ينقلونها شائبة كما يحبون، وعلى ما تهوى أنفسهم المعادية التي لا تنتظر إلى الإسلام نظرة غير متحيزة أو غير جانبية لا يرى بها القراطاس إلا من جانب الهوى المضلل، والكذب المفترى.

والعامة لا يعرفون شيئاً عن الإسلام، فمن الخير في الدعوة الإسلامية أن نكتب رسائل صغيرة في كل موضوع من موضوعات الإسلام يسهل تناولها، ويسهل هضمها، وتكون الموضوعات التي تشكل الرأي العام، كمنظرة العلاقات الإنسانية في الإسلام، ومنظرة الحرب، والتكافل الاجتماعي، وذلك كله مع بيان العقائد الإسلامية والعبادات الإسلامية السهلة الإدراك التي لا نرى فيها اضطراباً في فكر، ولا التواء في اعتقاد.

ويجب أن تتوافر الجماعات التي تتخصص في هذا؛ لكتابة ما يكون في الإسلام علاج له في وسط ذلك المضطرب الإنساني، وخصوصاً في المسائل التي تثير النزاع في هذا الوجود الإنساني.

(ب) ومن بعد هذه الكتب المبينة لحقائق الإسلام، إذاعة هذه الحقائق بالمدىح المرئي

وغير المرئى فى البلاد الإسلامية، وغيرها إن أمكن فتخصص ساعات من الإذاعات الإسلامية بنوعها لبيان الحقائق الإسلامية الإنسانية والجماعية والأحادية ليكون الناس على علم بالإسلام، أو ليعرفه من يتعرفه، وبالنسبة للعقيدة تذكر آيات القرآن الداعية إليها بأسلوب لا يعلو على العامة، ولا تنبو عنه أنواق الخاصة.

وتذكر حياة الرسول ﷺ، وما اقترن بها من معجزات وخوارق للعادة، مع بيان أخلاقه الذاتية، وفضائله المحمدية من وقت مولده إلى أن لقي ربه.

(ج) والمجلة الإسلامية بدل أن تكتب المقالات المسهبة فى اختلاف العلماء أو تهويل الأحكام الإسلامية، أو تتبع ما هو مستور مما لا يعلن ينبغى أن تخصص كل مجلة باباً من أبوابها لبيان الحقائق الإسلامية، فتبين العقيدة، وتبين الأحكام التكليفية، ويكون باب الدعوة مكتوباً باللغة العربية ابتداءً، ومترجماً إلى لغة من اللغات الحية أو لغة من اللغات المنتشرة فى العالم، ويعمل على توصيلها إلى كل أجزاء الأرض.

(د) وتنشأ جماعات متخصصة للدعوة فى كل بلد غير إسلامى ما أمكن ذلك، فإن تعسر أو تعذر تكون فى بلد قريب منه يمكن أن تصل الحقائق منه إليه، فتنبث الجماعات الإرشادية التى كونها الفرض الكفائى لهذا الغرض فى طول الأقاليم وعرضها داعية مبينة باللقاء بالذين تدعوهم، وتهديهم إلى الله تعالى، وأن يحسوا بالخير الذى يكون فيه من يتبعون الإسلام حقاً وصدقاً.

وإن هؤلاء الذين يدعون إلى الإسلام عن قرب، ويلتقون بالمدعوين لا يقتصر على القول، بل يجب أن يكون تأليف القلوب بجوار الدعوة القولية التى تبين الحقائق الإسلامية، فيجب أن يكون بجوار ذلك، وسائل عملية تؤلف ولا تنفر، وتقرب النفوس من غير أن يكون فيها ما ينفر، وذلك بالمعاونات الإنسانية المختلفة، فإنها تدنى القلوب النائية.

فإذا كان الداعى طبيباً عالماً بالمرض، وطب لنوى الأسقام، وفى سبيل ذلك تقام المصحات الإسلامية فى وسط الأقوام الضعاف لطب أجسامهم، ومن وراء ذلك تأليف قلوبهم، والمبشرون المسيحيون يفعلون ذلك فى البلاد الإسلامية، وإذا كانوا لا ينجحون، فلأنهم بين أقوام دينهم أهدى سبيلاً، وأقوم دليلاً.

وتكون الرعاية الاجتماعية والاقتصادية قائمة على دعائم إنسانية لا ينفك فيها أنها شراء للنفوس، ولا يكون ذلك مقصداً بأى وجه من الوجوه بل يطعمون الطعام على حبه أولئك المساكين، وإذا كان التأليف غاية من حيث الدعوة، فإنه يجب أن يكون الباعث إنسانياً دينياً

تأليفياً محبباً في الإسلام وليس اتجاراً، وبيان أن ذلك مقصد جوهرى من مقاصد الإسلام،
ويبين لهم في هذا المقام أن الإسلام يرحم الإنسان ويكرمه لأنه إنسان ولو كان وثنيّاً أو
مجوسياً، ويذكر لهم سيرة السلف الصالح في ذلك .

وإن الإسلام لا ينظر في التعاطف الإسلامى إلى الاختلاف في العنصر أو الجنس أو
الدين، وإنما الجميع سواء أمام الله تعالى، كما قال تعالى : «يأيها الناس إنا خلقناكم من
ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم»^(١).

فهذا التبصر بمصحة أو علاج، أو معونة أو هداية إلى أسباب الإنتاج من زراعة
وهندسة، واستخراج المياه هو من باب التعاون الذى حث الله تعالى عليه، ودعا إليه، فقد قال
تعالى «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان»^(٢) وقال عليه الصلاة
والسلام: «الله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه» يبيّن فيهم هذه المعانى عن الإسلام،
وهو يمدّهم بهذا العون، لكيلا يعلموا أنه ثمن الاتباع.

(هـ) ويجرى معهم بسنة التدرج، لا يعطيهم الإسلام جرعة واحدة، كما أشرنا من قبل،
بل يتدرج بهم من السهل المقبول الذى لا ينفرون منه بمقتضى عاداتهم، وإن كانت آثمة.

يبتدئ معهم، ببيان العقيدة، ويقويها بالصلاة، ويعلمهم الصلاة عملاً، ويقول لهم صلوا
كما رأيتمونى أصلى، ويسير بهم سيراً إلى الإمام في بيان الشريعة بالتفصيل يبتدئ
بالعبادات، ثم بالمحرمات الأسهل قبولا فالأسهل قبولا حتى يبين لهم الشريعة كاملة فيكونون
مثلاً، إن لم يكونوا خيراً منا .

الداعى

٥٢ - لاشك أن شخصية الداعى لها الأثر الأكبر في الاستجابة، فهو الذى ينفذ إلى
نفوسهم فيقربها أو يجرى، بمخاشنتهم فينفروا، أو يكون فيه جفوة طبع، وغلظة نفس فلا
يميل أحد إليه بالفطرة، ولقد قال الله تعالى : «ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من
حوالك»^(٣)، وأنه يجب أن يتحلى بالصفات الآتية :

أولاً - يجب أن يكون ذا نية حسنة يحتسبها لا يدعور جاء أجر، أو مال أو جاه، إنما
يدعور جاء ما عند الله لأنه يقوم مقام النبيين في الدعوة إلى ربهم، والاتجاه إلى الناس بقلب
سليم، لا يطلب إلا ما عند الله تعالى، وإن مافى القلب يصل إلى القلب.

(١) آل عمران : ١٥٩

(٢) المائدة : ٢

(٣) الحجرات : ١٣

يروى أن رجلاً قال للحسن البصري كلاماً حسناً، فقال له الحسن: إما أن يكون بنا عيب أو بك، إنا لم يؤثر فينا قولك؛ إن ما كان من القلب يصل إلى القلب، إنه يتقدم الداعي إلى الدعوة مؤمناً بوجوبها، ومتسامياً بها، لأنها عمل النبي ﷺ، ولا يقوم بها على أنه مأجور يرجو رضا رئيس، أو ترقية إلى منصب.

وثانياً - يجب أن يكون على درجة في البيان، ومعرفة وجوه القول، ولا يشترط أن يكون خطيباً مدرهاً، بل يكفي بأن يعرف كيف يخاطب الناس، ويأتي بهم من قبل ما يدخل إلى نفوسهم. يأتيهم من قبل ما يألفون، فإن كانوا لا يألفون الدعوة الإسلامية يحاول أن يأتيهم مما يقاربها ولا ينافرها، ورضى الله عن إمام الهدى على كرم الله وجهه، إذ يقول: إن للقلوب شهوات وإقبالا وإدباراً، فأتوها من قبل شهواتها وإقبالها، فإن القلب إذا أكره عمى.

ثالثاً - أن يكون شخصية نافذة لا تقتحمها الأعين، وتزدرىها النفوس، وألا يكون معيباً بعيب نفسه أو خلقه، وأن يكون معروفاً بكمال الخلق، وفيه كمال سمعت، يتكلم في موضع القول، ويصمت في موضع الصمت، ويكون صمته حكماً.

ورابعاً - أن يكون أليفاً موطاً الكنف رفيقاً في المعاملة لينا من غير ضعف متراضعاً في غير صنعة، حليماً رزيناً، يتجه إلى معالي الأمور، ولا ينزل إلى سفاسفها، يحسون في حضرته بأنه منهم، يعلو بهم، فإن طار طاروا معه وإن هبط هبطوا معه.

وخامساً - يجب أن يكون عالماً بالكتاب والسنة دارساً معها علم النفوس، وعادات الذين يدعوه، ليأتيهم من قبلها غير مباعد عنها، إلا أن تكون عادات قبيحة، فإنه يعمل على تغييرها من غير تنفير، ولا مباغته، أو مهاجمة بها قبل تأليفهم نحو الحق، وجذبهم إليه، ولقد قال النبي ﷺ لمن أرسلهم للدعوة إلى الإسلام «يسروا، ولا تعسروا، وبشروا، ولا تنفروا».

وسادساً - لا يكون خصماً، فلا يدخل في خصومات مع من يدعوه، ويكون من عباد الله تعالى الذين قال الله تعالى فيهم: «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً * والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً * والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً * إنها ساءت مستقراً ومقاماً * والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا، وكان بين ذلك قواماً»^(١) إلى أن قال تبارك وتعالى: «والذين لا يشهدون الزور، وإذا مروا باللغو مروا كراماً * والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً * والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً»^(٢).

(٢) الفرقان: ٧٣ - ٧٤

(١) الفرقان: ٦٣ - ٦٦

وسابعها - ألا يكون في مظهرهم مخالفة للدين ولأوامره، بل يكونون قدوة لمن يدعونهم بأن تكون الدعوة بعملهم أوضح من الدعوة بأقوالهم، فإن الدعوة بالعمل توجد القدوة والأسوة وذلك أدعى إلى الاتباع من القول، ولقد كان القرآن الكريم يدعو إلى الأسوة بالنبي ﷺ، فقد قال تعالى: «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً»^(١).

وثامنا - يكون بعيداً عن مواطن الشبهات، فإن إثارة الشبهات حوله تضعف قوة قوله وتوهن دعوته، وإذا وهنت الدعوة، وهنت الإجابة، ولم يجد مجيباً، وهذه الصفات إذ توافرت كان الداعي كاملاً.

وإذا نقص بعضها نقص من الدعوة بمقدار النقص، ونحن نذكر الكمال وكل يسعى للوصول إليه، والقيام بحقه.

وعلى الداعي التحلى بكل ما يمكن أن يتحلى به، ومهما يكن فإنه لا يصح أن يخلو من التقوى، والقيام بالواجبات الدينية، والبعد عن المعاصي، فيجتنب كبائرها، ولا يظهر بصفائرها، والله هو الموفق.

مادة الدعوة

٥٣ - إن الدعوة إلى الإسلام تتكون مادتها وأدلتها مما يأتي :

أولاً - العقيدة الإسلامية، وهي عقيدة الوحدانية، وبيانها من القرآن الكريم وبيان أسماء الله الحسنى أو صفات الذات العلية، كما وردت في القرآن الكريم، من غير سلوك لطريقة علماء الكلام، ومن غير مناقشة للفلاسفة أو غيرهم، فإن المجادلة لهم في آرائهم، تلقى بالفعل الفطري في متاهة يضل سالكها، ولا يهتدى.

والرسالة المحمدية جزء من العقيدة الإسلامية، وتتخذ معاني الرسالة من القرآن الكريم، الذي هو المعجزة الكبرى .

ويبين في العقيدة الإسلامية أنها دين النبيين أجمعين، ويعرفون بهؤلاء الأنبياء كما يعرفون بالملائكة، وكما يعرفون باليوم الآخر، وما يكون فيه من حساب وعقاب وثواب.

(١) الأحزاب: ١٣

ويعلمونهم هذه العقيدة، كما جاء بها القرآن الكريم، ويشددون في الإيمان بالبعث والغيب، فإن ذلك لب الإيمان، وجوهر الدين، ومن لا يؤمن بالغيب والبعث لا يؤمن بأى دين.
وفى الجملة يعتمد فى بيان العقيدة على القرآن وحده، وأدلتة هى غذاء النفوس وشفاء القلوب.

وثانياً - الإيمان بالقرآن وأنه منزل من عند الله تعالى، وأنه أعجز العرب عن أن يأتوا بمثله، ويتلى عليهم مرتلاً، وتلى عليهم آيات الإعجاز مبينة موضحة بلغاتهم، فتتلى الآية بنصها العربى، فلا قرآن إلا ما هو بالبيان العربى، وتعرف لهم معانيها، بلغاتهم ويذكرون بالله تعالى فى خلق الكون وما فيه من زرع وثمار، وسماء زينها ربه بالنجوم وما فيها من خلق الكون الذى يدل على الخالق، وكما قلنا تتلى عليهم الآيات كما نزلت، وتبين لهم معانيها بلغتهم.

إن القرآن فيه علم الدين، وفيه الأدلة، وفيه الموعظة الحسنة، فيختار من آياته ما يكتب فيه النص، ويكتب تفسيره بلغتهم على أنه ليس القرآن، بل على أنه بعض ما يدل عليه.

وثالثاً - السنة تختار لهم أحاديث مما يبث روح التقوى فى القلوب ويهز النفوس وتدرس لهم سيرة رسول الله ﷺ، وينبه إلى مواضع العبرة فى هذه السيرة، مما يدل على أنه صادق ولا يمكن أن يكون كاذباً فى الحديث عنه.

رابعا - ذكر السيرة النبوية الطاهرة، وينبه فيها على النواحي التى تدل على الصدق والأمانة، والخلق الكريم.

خامساً - بيان الأهداف الإسلامية فى الأحاد والجماعات مما يدعو إليه الإسلام فى الكرامة الإنسانية، والعدالة فى الحكم بين الناس، والعدالة الاجتماعية والدولية، وما يدعو إليه من مساواة وحرية، وتعاون بين الناس على البر والتقوى، ونهيه عن التعاون على الإثم والعدوان، وما يدعو إليه من محو التفرقة العنصرية، وما يدعو إليه من التعاون الإنسانى.

ويبين ذلك الجزء من القول بالتفصيل والله تعالى الهادى إلى سواء السبيل ؟

تم بحمد الله وتوفيقه

المحتويات

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
	الدعوة الإسلامية في العصر	٣	تعريف بالشيخ الإمام أبو زهرة
٥٩	العباسي	٥	الدعوة إلى الإسلام
٥٩	الدعوة بالآحاد	٧	التمهيد
٦٠	التجارة والدعوة الأحادية	١٢	الحال الآن
	غير العرب في الدعوة إلى	١٦	وجوب الدعوة بحكم تكليفي
٦٢	الإسلام	١٨	التكليف لمن بعده
٦٤	الفرق والطوائف	٢٥	نوع الوجوب
٦٤	المعتزلة والدعوة الإسلامية	٢٩	النصوص تثبت الوجوبين
٦٦	الزيدية والدعوة الإسلامية	٣٤	قصور بلا حجة ولا معذرة
٦٨	الصوفية		الدعوة إلى الإسلام في حياة
٧٠	الشعبذة والتصوف	٣٦	أصحاب النبي
٧١	التصوف	٣٩	دعوة الصحابة إلى الإسلام
٧٣	التربية الصوفية		أساليب الدعوة في عهد الصحابة
٧٧	الدعاية الصوفية	٤٠	ومن أوليهم
٧٩	الصوفية والإسلام في أفريقيا	٤٤	السنة وسيرة الرسول
٨٠	التيجانية - السنوسية	٤٥	الجهاد والدعوة إلى الإسلام
٨٢	الدعوة الإسلامية الآن	٤٧	صورة الحرب الإسلامية
٨٣	تنظيم الدعوة	٤٩	الدعوى في أعقاب الحرب
٨٥	الإشراف على الدعوة		عمل الموالى في الفقه وعلوم
٨٦	الاتصال بالصوفية	٥١	الإسلام
٨٨	أساليب الدعوة	٥٢	حسن الجوار وأثره في الدعوة
٩٠	الداعى	٥٤	العدل ومقامه في الدعوة
٩٢	مادة الدعوة	٥٧	العدل مع أهل العهد
٩٤	الفهرس	٥٨	الذمى

مؤلفات الإمام الشيخ

محمد أبو زهرة

العالم الجليل الذي أثرى المكتبة الفقهية بموسوعات، والذي ستبقى ذكره شعلة
وهاجة في العلم والفقه الإسلامي، تلك المؤلفات الخصبة التي وهب الله سبحانه وتعالى إياها
لتكون منارا يهتدى به العلماء من بعده في دراسة الفقه الإسلامي.

- ١ - خاتم النبيين ﷺ (ثلاثة أجزاء في مجلدين)
- ٢ - المعجزة الكبرى - القرآن الكريم
- ٣ - تاريخ المذاهب الإسلامية (جزءان في مجلد واحد)
- ٤ - العقوبة في الفقه الإسلامي
- ٥ - الجريمة في الفقه الإسلامي
- ٦ - الأحوال الشخصية
- ٧ - أبو حنيفة - حياته وعصره - آرائه وفقهه
- ٨ - مالك - حياته وعصره - آرائه وفقهه
- ٩ - الشافعي - حياته وعصره - آرائه وفقهه
- ١٠ - ابن حنبل - حياته وعصره - آرائه وفقهه
- ١١ - الإمام زيد، حياته وعصره - آرائه وفقهه
- ١٢ - ابن تيمية - حياته وعصره - آرائه وفقهه
- ١٣ - ابن حزم - حياته وعصره - آرائه وفقهه
- ١٤ - الإمام الصادق - حياته وعصره - آرائه وفقهه
- ١٥ - أحكام التركات والموارث
- ١٦ - علم أصول الفقه
- ١٧ - محاضرات في الوقف
- ١٨ - محاضرات في عقد الزواج وآثاره
- ١٩ - الدعوة إلى الإسلام
- ٢٠ - مقارنات الأديان
- ٢١ - محاضرات في النصرانية

- ٢٢ - تنظيم الإسلام للمجتمع
٢٣ - فى المجتمع الإسلامى
٢٤ - الولاية على النفس
٢٥ - الملكية ونظرية العقد
٢٦ - الخطابة «أصولها ، تاريخها فى أزهى عصورها عند العرب»
٢٧ - تاريخ الجدل (الذى مضى على طبعته مايقارب الخمسين عاما).
٢٨ - تنظيم الأسرة وتنظيم النسل
٢٩ - شرح قانون الوصية
٣٠ - الوحدة الإسلامية
٣١ - العلاقات الدولية فى الإسلام
٣٢ - التكافل الاجتماعى فى الإسلام
٣٣ - المجتمع الإنسانى فى ظل الإسلام
٣٤ - الميراث عند الجعفرية

تطلب جميعها من ملتزم طبعها ونشرها وتوزيعها

مؤسسة

دار الفكر العربى

الإدارة : ١١ ش جواد حسنى - القاهرة

ص ب ١٣٠

